إضاءات قرآنية

د . محمد محمود كالو

دار النهضة العلمية
1439 هـ 2018 م

إضاءات قرآنية

د . محمد محمود كالو

دار النهضة العلمية

1439 هـ 2018 م

بسم الله الرحمن الرحيم

دار النهضة العلمية

الطبعة الأولى

1439 هـ 2018 م

مقدمة

الحمد لله حمد الموقنين به، الشاعرين بعظيم نعمه وفضله، وأصلي وأسلم على رسوله الكريم المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الغر الميامين، وعلى من سار على دربه والتزم بشرعه إلى يوم الدين، وبعد:

فالقرآن حياة للقلوب والأرواح، اقرأ ما شئت، واحفظ ما شئت، واكتب ما شئت، واسمع ما شئت؛ لكنك بغير القرآن لن تنجُ ولن تسعد ولن تفلح، فبيقين تام لا شك فيه: أقصر طريق لإصلاح القلوب: تدبر كتاب الله، والعيش في رحابه، وجعله منهج حياة، والقرآن مركب من كلمات؛ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة.

إن القرآن الكريم يحي القلوب كما يحي الماء الأرض، قال الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: 17] وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد : 16].

وفي هذه إشارة إلى أن حياة القلوب تكون بذكر الله عز وجل وما نزل من الحق وهو القرآن كما أن حياة الأرض الميتة يكون بالماء.

لقد أنزل الله القرآن نورًا لا تُطفأ مصابيحه، وسِراجًا لا يخبو توقُّده، ومِنهَاجًا لا يضلُّ نهجه، وعِزًّا لا يُهزم أنصاره، فهو معدن الإيمان وينبوع العلم، وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها المادحون، جعله الله ريًّا لعطش العلماء، وربيعًا لقلوب الفقهاء، ودواءً ليس بعده داء.

قال مالك ابن دينار – رحمه الله – : "ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض".

فالقرآن الكريم هو حياة المؤمن، وهو واقعه الفعلي الذي يمشي فيه بنور من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:122] وهو نور من الله يستبصر به المرء طريق الهداية ويستعين به للخروج من ظلمات بعضها فوق بعض.

ويقول الله تعالى ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد:28] ويقول أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:52].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس :58]، ففضل الله هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومِنَّة، وهو فضلٌ تفضَّل الله تعالى به على عباده، ورحمة الله: هي الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته، فبذلك فليفرحوا وليس بشيء غير ذلك.

لقد شاعت منذ قرون طويلة مقولة مغلوطة، ولا تزال مع الأسف تهيمن على قناعة بعض شبابنا اليوم، مفادها أنّه لا يمكن الاحتجاج بالقرآن على غير المؤمنين؛ لأنّه حجّة على المؤمنين به فقط، وليس فيه حجّة على من لا يؤمن به، وأنّه ينبغي أولاً إثبات وجود الله وأنّ القرآن وحيٌ من عنده بأدلة عقلية وعلمية خارجية، ثم بعد إيمانهم بالقرآن يمكن الاستدلال بآياته ومحاججتهم بها!

وهي مقولة خاطئة ينبغي مراجعتها ممّا ينبغي مراجعته من تراثنا الكلامي والعقائدي، فالقرآن فيه هدى وبيّنات لكل الناس، وليس للمسلمين فحسب، دقق بكلمة (الناس) في قول الله

تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185].

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يواجه بالقرآن قومًا لا يؤمنون به ولا بالبعث ولا بالتوحيد، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52] أي جاهدْهم بالقرآن.

إن القرآن الكريم هو نور من الله تعالى لعباده إلى جوار نور الفطرة والعقل فهو ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:36]، وقد وصف نفسه بأنه نور في آيات عديدة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:174]، وكقوله جل جلاله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:8]، ووصف الصحابة الكرام بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:157].

ومن خصائص النور أنه بيِّنٌ في نفسه، ومبيِّنٌ لغيره، فهو يكشف الحقائق، ويدحض الشبهات، ويرد الأباطيل، ويهدي الحائرين إذا التبس السبيل عند فقد الدليل.

ولهذا الكتاب أهداف ومقاصد يسعى إليها ويحرص عليها، كتصحيح العقائد والتصورات عن الألوهية والنبوة والجزاء، وتصحيح المفاهيم عن الإنسان وكرامته ورعاية حقوقه، كما يحرص على صلة العبد بربه ليعبده وحده لا يشرك به شيئاً.

كما يعمل على تزكية النفس وتكوين الأسرة التي هي نواة المجتمع، وإنصاف المرأة، وإنشاء الأمة الصالحة، والدعوة إلى عالم إنساني يتعارف ولا يتناكر، ويتسامح ولا يتعصب، ويتعاون على البر والتقوى.

أما أهل الإعراض عن نور القرآن فإنهم يحاربونه، ويسعون جهدهم لإطفائه؛ حرماناً للناس من نوره لما حرموا هم منه، ولكن الله تعالى كتب أن يبقى هذا النور إلى آخر الزمان؛ ليستضيء به مَن قَبِلَه وأَقْبَلَ عليه، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾]التوبة: 32[.

إن كتاب الله تعالى يجمع الكلمة، ويرصُّ الصفوف، ويصحح المسار، وينقي القلوب من أمراضها، ويجعل الأمة أقدر على تحمُّل الأعباء والمشاق في طريق الحق والهدى، كما يجعلها أصبر على مواجهة أمواج العولمة الهادرة وسيولها المتدفقة من كل حدب وصوب.

ولأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها فإنه يتعيَّن علينا ربط الأمة بكتاب ربها وتقوية صلتها به، وبذل الجهد حثيثاً في إنزال معاني القرآن على الواقع المتسارع لأمتنا، الواقع الذي زالت فيه كثير من الحجب والحواجز، وأصبح الإثم متاحاً فيه للصغير والكبير والذكر والأنثى بأجهزة ذكية تغمرهم به صباح مساء، لا يمنعهم من هذه الأمواج الهادرة إلا الاعتصام بحبل الله تعالى المتين وكتابه العظيم.

لذا كان هذا العمل المختصر الذي أدعو الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم مفيداً في لفت النظر لجوانب عميقة في آيات من الكتاب العزيز، مبرزاً لعظمة معاني القرآن ودلالاته، مساهماً في ربط الأمة بكتاب ربها جل جلاله.

كانت هذه المقالات قد نشرتها قبل الآن على وسائل التواصل الاجتماعية، ولما لها من فائدة كبيرة أحببت أن أجمعها في هذا السفر الصغير، خشية أن تضيع سدى بين الأمواج المتلاطمة في بحر الأنترنت الهائج.

هذا الكتاب يوضّح بعض المفاهيم من خلال سياق بعض الآيات، وكيف يمكن للقرآن أن يواجه بعض أبرز شبهات الإلحاد المعاصر، وخاصة المبنية منها على العقل والفكر، مع إبراز

بعض المعاني الغامضة عن كثير من الشباب، والمفاهيم المعاصرة في الواقع، وبأسلوب معاصر وحديث.

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة فصول على الشكل التالي:

الفصل الأول: المصحف بين الكرام واللئام.

الفصل الثاني: مفاهيم ومحاذير في الفهم والتفسير.

الفصل الثالث: أطايب الكلام: تفسيرات وآراء.

والله تعالى أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه على كل شيء قدير.

أديامان – تركيا
27 شوال 1439 هـ
11 تموز/يوليو 2018م

د. محمد محمود كالو

الفصل الأول

المصحف بين الكرام واللئام

الإجازة القرآنية: معناها – منشؤها أدلتها – وحكم أخذ الأجرة عليـها

تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم بطريقتين:

حفظه في الصدور

وحفظه في السطور

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الصحابة ليكتبوا ما نزل من القرآن فور نزوله وهؤلاء سموا بـ (كتاب الوحي) فكانوا يكتبون القرآن بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن انتهى نزول القرآن، فكان مفرقاً ولم يكن مجموعاً في موضع واحد.

وإثر مقتل كثير من الحفاظ في حروب الردة أشار عمر على أبي بكر رضي الله عنهما أن يجمع القرآن، فوافق وانتدب زيد بن ثابت لمهمة كتابته وجمعه في موضع واحد، وذلك لمداومة زيد على كتابة الوحي وشهوده العرضة الأخيرة للقرآن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي سنة خمس وعشرين للهجرة رأى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه – وكان في أرمينيا وأذربيجان مع جيش المسلمين –كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءة؛ ففزع إلى عثمان قائلاً: " أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى".

فاستشار عثمان أعلام الصحابة فاجتمع رأيهم على نسخ مصاحف يرسل كل مصحف من المصاحف إلى مصر من الأمصار؛ ليكون مرجعاً للناس عند الاختلاف؛ وإحراق ما عداها، وأصح الأقوال أنه نسخ ستة: (البصري، والكوفي، والشامي، والمكي، والمدني العام، والمدني

الخاص) وهو الذي حبسه عثمان لنفسه وسمي بمصحف الإمام أي القدوة؛ ولعله نُسخ أولاً ومنه نسخت المصاحف العثمانية الأخرى.

أما وجوه القراءات المختلفة للقرآن الكريم فقد نقل عدد كبير من الصحابة والتابعين ثم من بعدهم كبار أئمة المسلمين، بطريق المشافهة وهي بمثابة تزكية للقارئ.

ومن هنا كانت الإجازة القرآنية وهي شهادة تزكية من الشيخ المجيز للطالب المجاز بأنه قد قرأ عليه القرآن كاملاً غيباً مع التجويد والإتقان للرواية أو الروايات المجاز بها، وأصبح مؤهلاً للإقراء بها، وبالحصول على الإجازة يكون القارئ قد اتصل إسناده بالنبي صلى الله عليه وسلم، وصار ضمن سلسلة الناقلين لكتاب الله تعالى بالسند المتصل.

قال الإمام السِّيوطيُّ في الإتقان: «فجُعلت الإجازة كالشهادة من الشيخ للمُجاز...»[1].

والإجازة على نوعين: إجازة لفظية (شفوية) وإجازة كتابية، والمتأمل في تزكية النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه على حُسن قراءتهم وجودتها يجدها إجازة لفظية من خير البريَّة صلى الله عليه وسلم لخير القرون، وهي أوثق بلا شك من الإجازة الكتابية، وذلك لأنه طريق القرآن الكريم حيث نقل إلينا لفظاً ومشافهة.

من النصوص الدالة على الإجازة القرآنية:

1-عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «خُذوا القرآن من أربعة، من عب[2]دالله بن مسعود، وسا لم، ومعاذ، وأُبيٍ بن كعب » [متفق عليه].

1- الإتقان للسِّيوطيُّ :135/1-136.

2

2- وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم « اقرأ عليَّ القرآن، قلتُ: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال إني أحبُّ أن أسمعه من غيري » [رواه الشيخان].

3-وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأُبيّ: «إن الله عز وجل أمرني أن أقرأ عليك، قال: آلله سمَّاني لك؟ قال: آللهُ سمَّاك لي، قال فجعل أُبيّ يبكي» [متفق عليه].

فهذه الأحاديث تدلُّ دلالةً واضحة على تزكية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضوان الله تعالى عليهم لإجازته لهم إجازةً لفظية وشهادة عُظمى من خير مُجيز لخير مُجاز.

وذكر البغويُّ في شرح السُّنة: أن زيد بن ثابت رضي الله عنه شهد العرضة الأخيرة التي عرضها رسول الله على جبريل، وهي التي بيَّن فيها ما نُسخ وما بقي.

"قال أبو عبد الرحمن السُّلمي: هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت؛ لأنه كتبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئُ الناسَ بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولاهُ عثمان كتبة المصاحف رضي الله عنهم أجمعين "[1].

أول ظهور لمصطلح الإجازة القرآنية:

ليس هناك دلالة قاطعة على بداية مصطلح الإجازة القرآنية، ولكن يبدو أن ظهور هذا المصطلح جاء متزامنًا مع بداية التصنيف في القراءات القرآنية في القرن الثالث الهجري.

1- شرح السنة للبغوي: 4/525-526.

وربما يستأنس في ذلك ما جاء في ترجمة: محمد بن إدريس بن المنذر – أبوحاتم الرازي المتوفى سنة خمسٍ وسبعين ومائتين؛ إذ روى القراءة عنهُ إجازة الإمام أبوبكر بن مجاهد معرفة القراء الكبار، المتوفى سنة أربعٍ وعشرين و ثلاثمائة[1].

وجاء في ترجمة: عبدالصمد بن محمد بن أبي عمران هو أبو محمد الهمداني المقدسي المتوفى سنة أربع وتسعين ومائتين؛ إذ روى عنهُ القراءة إجازةً أحمد بن يعقوب التائب المتوفى سنة أربعين وثلاثمائة"[2].

حكم أخذ المال على الإجازة:

إن اشترط المجيز أخذ المال على الإجازة سواء كان قبل الإجازة أم بعدها، فقد نقل السيوطي الإجماع على عدم جواز ذلك فقال:

«ما اعتادهُ كثير من مشايخ القُراء من امتناعهم من الإجازة إلا بأخذ مالٍ في مقابلها لا يجوز إجماعًا، بل إن علم أهليّته وجب عليه الإجازة؛ أو عدمِها حرُم عليه، وليست الإجازة مما يقابل بالمال فلا يجوز أخذهُ عنها ولا الأجُرةُ عليها»[3].

أما إذا لم يشترط المقرئ ذلك فيجوز له أخذ المال على الإجازة ولا يقدح ذلك في سندها.

وأخيراً: تجدر الإشارة هنا إلى أن عدم وجود إجازةٍ علمية عند شيخ من المشايخ ليست دليلاً على هبوط مستواه العلمي، فما أكثر من ارتفعت سمعتهم العلميةُ ولم تُسعِفهم الظروف لأخذ إجازاتٍ علميةً من مشايخهم.

1- انظر: غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري:97/2.

2- انظر: معرفة القراء الكبار للإمام الذهبي: 525/2.

3- انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي :136/1.

لماذا اختار اللهُ تعالى اللغةَ العربية للقرآن الكريم؟!

في 18 كانون الأول / ديسمبر من كل سنة تَقرر الاحتفال باللغة العربية لكونه اليوم الذي أصدرت فيه الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها رقم 3190، والذي يقر بموجبه إدخال اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية ولغات العمل في الأمم المتحدة، وفي أكتوبر 2012 عند انعقاد الدورة 190 للمجلس التنفيذي لليونسكو تقرر تكريس يوم 18 ديسمبر يوما عالميا للغة العربية، واحتفلت اليونيسكو في تلك السنة للمرة الأولى بهذا اليوم، وبهذه المناسبة سيكون حديثنا اليوم عن اللغة العربية، ولماذا اختارها الله تعالى لغة للقرآن الكريم؟

إن القرآن الكريم هو الذي وحَّد اللهجات العربية في بوتقة واحدة، فتحصنت اللغة العربية، ثم جاء المغول ليخنقوها، وقذفوها في مياه دجلة، إلا أنها لم تختنق ولم تغرقها مياه دجلة العارمة، فهبت اللغة العربية منتصبة على قدميْها.

وجاء (نابليون) يريد محوها ودفنها ، فلم يستطع وأعلنت العربية عن وجودها.

وجاءت حركة (الاتحاد والترقي) في العهود الأخيرة من عمر الخلافة العثمانية، يريدون الكيد منها، فباءوا بالفشل الذريع.

وعقدت مؤتمرات (باريس) لمحو اللغة العربية من أرض الجزائر، فما استطاعوا أن يطفئوا نار حقدهم، هذه اللغة العظيمة، أي شيء أكسبها هذا الخلود والبقاء؟ لا شك ولا ريب إنه كتاب الله (القرآن الكريم).

ولهذا نفهم كلام العرب الذي قالوه قبل عشرات القرون، بينما الفرنسيون والإنكليز وغيرهم لا يستطيعون أن يفهموا ما كُتب قبل أربعمائة عام، إلا بجهد جهيد، وبالاستعانة بالمعجمات لحل غموض اللغة التي يسمونها (الكلاسيكية) أو (القديمة) بعد أن تغيرت قواعدها، على عكس العربية.

لقد أكد القرآن الكريم حقيقة عروبته في آيات كثيرة، منها قوله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:2] ، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:27-28].

كما يجب علينا أن نلاحظ أن القرآن الكريم، لم يعبر بكلمة (لغة)، وإنما عبر بـ(اللسان) بمعنى اللغة.

قبل نزول القرآن الكريم كان العرب يتكلمون اللغة العربية بالسليقة والسجية، فصيحة معربة، سليمة من اللحن والاختلال، ولم تكن لها قواعد مدونة، والنحو المدون لم يظهر حتى ظهر نور الإسلام، فانتشرت العربية بانتشار الإسلام، وكتب العلماء المسلمون من غير العرب أكثر من علماء العرب، وبذلك أصبحت العربية عالمية مقدسة، ومنتشرة في كثير من أقطار الأرض.

لقد كان للغة العربية ـ بفضل الإسلام ـ أنصار ومحبون من غير العرب، وكان لها منهم علماء وأعلام عرَّبهم الإسلام، حتى كان منهم أصحاب المؤلفات الرائعة، في قواعد اللغة العربية وفي بلاغة القرآن الكريم.

بل إن أعظم كتاب في النحو العربي هو كتاب سيبويه الفارسي.

ومن أعظم كتب العربية وفقهها (الخصائص) لأبي الفتح عثمان بن جني الرومي اليوناني.

وأشهر وأوثق مرجع لغوي في العربية (القاموس المحيط) لأبي طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزابادي وهو هندي.

وأشهر كتب إعجاز القرآن الكريم وأفضلها مؤلفوها من غير العرب، نذكر منهم:

أحمد بن محمد الخطابي البستي الأفغاني .

وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني .

وعبد القاهر ابن عبد الرحمن الجرجاني .

وغيرهم كثير، ألفوا الكتب في مختلف الدراسات القرآنية، وفروع العربية وآدابها.

وهكذا صاروا مضرب الأمثال، حتى أصبحنا إذا أردنا مدح أحد من علماء العرب، ألحقناه بأحدهم وشبهناه به فقلنا: فلان سيبويه عصره، أو زمخشري زمانه.

لقد أصبحت اللغة العربية، لغة الدين الحق الذي يؤمن به مئات الملايين من الناس خارج الوطن العربي، ويغارون عليها، ويفضلونها على لغاتهم الأولى، ويرون أنها أفضل اللغات وأحقها بالحياة، وهي أقوى وسيلة من وسائل الترابط والوحدة بين العرب أنفسهم، وبينهم وبين المسلمين الذين يتكلمون بها في البلاد الإسلامية، وهي أقوى من رابطة النسب والدم، لأن الدم لا يمكن استصفاؤه بسبب التصاهر والتزاوج، والعربية بما تحمله من رسالة هذا الدين وكتابه، هي أساس العلاقات الحضارية والثقافية والاجتماعية بين العرب والمسلمين، بها تتوحد أساليب التفكير والتعبير، ويمكن التفاهم والتعاون على البر والتقوى، ونصرة الإسلام.

تلك من بعض حكمة الباري . جل جلاله . الذي أرسل كل رسول بلسان قومه، ولغة أمته التي بعث إليها، لدعوتها إلى الله باللسان الذي تفهم به وليكون لبيان الرسول أثر وتأثير، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:4].

ولما كانت رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم خاتمة وعامة، فقد وجب على جميع الناس والأمم الإيمان به واتباعه، ولا يكمل دين المرء إلا بتلاوة شيء من الكتاب العربي الذي أنزله الله تعالى، مما يجعل لغته لغة أتباعه وأمته، وأمة العروبة ليست أمة بالنسب والدم فقط، وإنما

من تكلم العربية فهو عربي اللسان والثقافة والانتماء، "وقد كان العرب يقولون: كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها، فهم عرب"[1].

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هؤلاء ؟

فقام معاذ بن جبل، فأخذ بتلابيبه ثم أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته، فقام النبي صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه، حتى دخل المسجد ثم نودي: إن الصلاة جامعة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد:

أيها الناس إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي، فقام معاذ بن جبل فقال: بم تأمرنا في هذا المنافق؟ فقال: دعه إلى النار، فكان قيس ممن ارتدَّ فقتل في الردة"[2].

إذن العربية ليست بالولادة ولا بالنسب والسلالة، وإنما بالكلام، فمن تكلم العربية فهو عربي!

واللغة العربية أيضاً، لغة الغنى والثراء والسعة، لغة ناضجة ومرنة قال الإمام الشافعي: (لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً).

وفي اللغة العربية كثير من الأسماء لمسمى واحد، كأسماء الأسد والحية والعسل، وممن ألف في المترادف، العلامة مجد الدين الفيروز أبادي صاحب (القاموس)، ألف فيه كتابا سماه: (الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف)، وأفرد خلقٌ من الأئمة كتباً في أسماء أشياء مخصوصة،

1- لسان العرب لابن منظور، مادة: (ع ر ب).

2- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن تيمية: 1 / 169.

فألف ابن خالويه كتاباً في (أسماء الأسد)، وكتاباً في (أسماء الحية)، ذكر أمثلة من ذلك (العسل) له ثمانون اسماً، أوردها صاحب (القاموس) في كتابه الذي سماه: (ترقيق الأسل لتصفيق العسل)[1].

والعجب كل العجب من أولئك الذين يشكون من فقر اللغة العربية، وعجزها عن مواكبة العصر، والتطوُّر العلمي الهائل، ولله در الشاعر حافظ إبراهيم، الذي قال على لسان العربي:

رجعت لنفسي فاتهمت حصـاتي	وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رَمَوْني بعقم في الشـــباب وليتني	عقمت فلم أجزع لقول عُداتي
وسـعت كتاب الله لفظاً وغـــاية	وما ضُـقْت عن آي بـه وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتنسيـق أســماء لمخترعــات
أنا البحر في أحشائه الدر كـامن	فهل ساءلوا الغوَّاص عن صَدَفاتي؟

هذه اللغة العربية الخالدة والمشرقة، أي شيء أكسبها هذا الخلود وهذا الإشراق؟

لا ريب أن الذي أكسبها الديمومة والبقاء والجاذبية هو القرآن الكريم، إنه قطب الرحى للأمة الإسلامية، لذلك مدَّ سلطان اللغة العربية على منطقة من أوسع مناطق الدنيا، واخترق بها قارات ثلاثاً هي: آسيا وأفريقيا وأوربا (الأندلس)، وجعل العربية هي اللغة العالمية المشتركة المنشودة، فكل مسلم يشعر أن العربية لغته لأن القرآن قد نزل بها.

1- الرسالة للإمام الشافعي:42/1.

لماذا نُصَدِّقُ قَصَصَ القُرْآن
ولا يُوجَدُ شاهِدُ عَيَانٍ لهَا ؟

هذا العنوان وردني كسؤال فأجبْتُ وأحببْتُ أن أنشره هنا مزيداً للفائدة، وربما يجول هذا السؤال نفسه في خاطر بعض القراء الكرام ليستبين ويستيقن بصدق قصص القرآن الكريم.

إن الذي يتأمَّلُ في قصص القرآن الكريم يتعجَّب غاية العجب كيف أتتْ مُفصَّلة على جزئياتها؟ وكأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان بمرأى ومسمعٍ مِن أحداثها، ولم يستطع أحد من أعداء الرسل ومنكري النبوة أن ينكرَها أو يعارضها مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة، فقصص القرآن معجزة كُبرى، وآية بينةٌ لإثبات الرسالة المحمدية، فهي تشتمل على كثير مِن العجائب والعبر والعظات والأحكام والأخلاق وألوان الابتلاء والامتحان والفضل والإحسان، وتلك القصص لم تشتهر قبل وُرودها في القرآن الكريم في المجتمعات العربية، وكانت غيبًا بالنسبة إليهم، لم يَشهدْها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال الله تعالى لنبيه في ختام قصة يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: 102].

والذي له خبرة بالكتب السابقة أَيْقَنَ أن قصص القرآن وأخباره مهيمنة على قصص أهل الكتاب وتحمِل إعجازًا تاريخيًّا مُذهلًا، حيث أخبرت بأخبار صحيحة عن وقائع مجهولة، وصحَّحَتْ أخبارًا وردتْ مُحرَّفة في التوراة والإنجيل من تاريخ بعض الأنبياء، والرد على دعاوى أهل الكتاب كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: 102].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67].

وكشفت قصصُ القرآنِ انحرافاتِ أهل الكتاب وجرائمَهم وتحريفَهم لكتبهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30].

وأخبَر القرآن عن قصة نوح عليه السلام ومكثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهذا موجود في التوراة الموجودة بأيدي أهل الكتاب؛ مقدار لبثه في قومه قبل الغرق وبعده.

وأخبرنا القرآن الكريم عن قصة الخليل إبراهيم عليه السلام، وما جرى له مع قومه، وإلقائه في النار وذبح ولده، ومجيء الملائكة إليه في صورة ضيفان، وتبشيره بإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وذهاب الملائكة إلى لوط عليه السلام وما جرى للوط مع قومه، وإهلاك الله مدائن قوم لوط، وقصة إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام مع بنِيْهِ؛ كقصة يوسف عليه السلام وما جرى له بمصر، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون، وتكليم الله إياه مرة بعد مرة، وآياته الباهرة؛ كالعصا، واليد البيضاء، والقمَّل، والضفادع، والدم، وفَلق البحر، وتظليل الغمام على بني إسرائيل، وإطعامهم المنَّ والسلوى، وغير ذلك.

فكانت هذه القصص لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم مِن أعظم الآيات والبراهين لقومه، بأنَّ هذا إنما أعلمه به وأنبأه به الله، ومثل هذا الغيب لا يَعلمُه إلا نبي، أو مَن أخذ عن نبي، فإذا لم يكن هو أخذه عن نبي، تعيَّن أن يكون نبيًّا.

قال أديب الإسلام الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى وهو يُبيِّن إعجاز قصص القرآن الكريم في معرض كلامه عن قصة ذي القرنين في تفسيره: في ظلال القرآن: "فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود، إنما المقصودُ هو العبرةُ المستفادة مِن القصة، والعبرةُ

تتحقق بدون حاجةٍ إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان، والتاريخ المدوَّن يعرف ملكًا اسمه الإسكندر ذو القرنين، ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن، فالإسكندر الإغريقي كان وثنيًّا، وهذا الذي يتحدث عنه القرآنُ مؤمن بالله، مُوحِّد معتقد بالبعث والآخرة"[1].

ويقول أبو الريحان البيروني المنجِّم في كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية": إن ذا القرنين المذكور في القرآن كان مِن حِمْيَر مستدلًّا باسمه، فملوكُ حمير كانوا يلقبون بذي؛ كذي نواس، وذي يزن، وكان يسمى أبا بكر بن أفريقش، وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فمر بتونس ومراكش وغيرهما، وبَنَى مدينة إفريقية فسُميت القارة كلها باسمه، وسُمِّي ذا القرنين لأنه بلَغ قرني الشمس.

وقد يكون هذا القولُ صحيحًا، ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه؛ ذلك أنه لا يمكن البحث في التاريخ المدوَّن عن ذي القرنين الذي يقصُّ القرآنُ طرفًا مِن سيرته، شأنُه شأن كثير مِن القصص الوارد في القرآن؛ كقصص قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وغيرهم، فالتاريخُ مولودٌ حديثُ العهد جدًّا بالقياس إلى عمر البشرية.

وقد جرَتْ قبل هذا التاريخ المدوَّن أحداثٌ كثيرة، لا يُعرَف عنها شيء، فليس هو الذي يستفتى فيها، ولو قد سَلِمَت التوراةُ من التحريف والزيادات لكانتْ مرجعًا يُعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث، ولكن التوراة أُحيطتْ بالأساطير التي لا شك في كونها أساطير، وشحنتْ كذلك بالروايات التي لا شك في أنها مزيدة على الأصل الموحى به من الله، فلم تَعُد التوراة مصدرًا مُستيقنًا لما ورد فيها مِن القصص التاريخي، قال الله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء:46].

1- في ظلال القرآن، لسيد قطب: 2289/4 – 2290.

وأما الإنجيل الموجود فيكفي في ثبوت تحريفه ما وقع فيه من قصة صلب المسيح عليه الصلاة والسلام، وأنه صلب ومات يوم كذا ودفن في القبر، قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ...﴾ [النساء:157].

وإذن فلم يبق إلا القرآنُ الذي حُفظ من التحريف والتبديل هو المصدر الوحيد لما ورَد فيه من القصص التاريخي.

طباعة المصحف بلغة (برايل)

من المعروف المتداول أن أول من اخترع طريقة تعلم العُميان والمكفوفين هو الفرنسي"لويس برايل" الذي ولد في 4 يناير عام 1809 وفقد بصره وهو في الثالثة من عمره، وانضم إلى معهد باريس في سن العاشرة، وقبل التحاقه بالمدرسة علّمه أبوه استخدام يديْه بمهارة، كان لويس برايل حادّ الذكاء فأصبح تلميذاً وموسيقياً بارعاً، وبعد تخرّجه أصبح معلّماً بالمعهد، واهتم برعاية المكفوفين، ثم تمكّن برايل أن يكتب طريقة الشيفرة العسكرية، والتي تتكوّن أساساً من اثنتي عشرة نقطة، ومنها تتكوّن كل الكلمات بالتبادل، إلا أن برايل استطاع تعديل واختصار الاثنتي عشرة نقطة إلى ست نقاط فقط ليسهل الموقف التعليمي على الكفيف، ثلاثة نقط على اليمين وثلاثة على اليسار، ومن هذه النقاط الست تتشكّل جميع الأحرف والاختصارات والرموز، ولم تكن طريقة برايل الطريقة الوحيدة للكتابة البارزة فقد كان هناك طرق أخرى.

إلا أننا نجد الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله يحدثنا كيف كان الناس في الأندلس؟ وكيف كان والد مؤدبه أحمد بن محمد بن عبد الوارث يعلِّم مولوداً له، حيث يقول:

"ولقد أخبرني مُؤَدبي أحمدُ بن محمد بن عبد الوارث ـ رحمه الله ـ أن أباه صور لمولود كان له أعمى وُلد أكمه حروف الهجاء أجراماً من قير ثم ألمسه إياها حتى وقف على صورها بعقله وحسه، ثم ألمسه تراكيبها وقيام الأشياء منها حتى تشكل الخط، وكيف يستبان الكتاب، ويقرأ في نفسه، ورفع بذلك عنه غمة عظيمة"[1].

1- التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تأليف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 456هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار مكتبة الحياة – بيروت، الطبعة الأولى، 1900م: 192.

ومن الجدير بالذكر أن أحد علماء الحنابلة وهو العلامة زين الدين أبو حسن الحنبلي الآمدي العابر واسمه: علي بن أحمد بن يوسف بن الخضر، أنه قد سبق المخترع الفرنسي برايل أيضاً، فقد ذكر الصفدي في ترجمته :

"من تصانيفه: جواهر التبصير في علم التعبير... وكان يتّجر في الكتب. وله كتب كثيرة جداً وكان إذا طُلب منه كتاب وكان يعْلم أنه عنده نهض إلى خزانة كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته، وإن كان الكتاب عدة مجلدات وطلب منه الأول مثلاً أو الثاني أو الثالث أو غير ذلك أخرجه بعينه وأتى به. وكان يمسّ الكتاب أولاً ثم يقول: يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كرّاس، فيكون الأمر كما قال. وإذا أمرَّ يده على الصفحة قال: عدد أسطر هذه الصحيفة كذا وكذا سطراً؛ فيها بالقلم الغليظ كذا؛ وهذا الموضع كتب به في الوجهة فيها بالحمرة هذا وهذا لمواضع كتبت فيها بالحمرة. وإن اتفق أنها كتبت بخطين أو ثلاثة، قال: اختلف الخط من هنا إلى هنا، من غير إخلال بشيء مما يمتحن به"[1].

فقد كان رحمه الله تعالى يعلم ذلك كله عن طريق الخط البارز الذي يُنسَب ابتكارُه لبرايل الفرنسي وقد جاء هذا بعده بقرون..!

ثم تابع الصفدي يقول عنه: " ويَعرف أثمان جميع كتبه التي اقتناها بالشراء، وذلك أنه كان إذا اشترى كتاباً بشيء معلوم، أخذ قطعة ورق خفيفة وفَتَلَ منها فتيلة لطيفة وصنعها حرفاً أو أكثر من حروف الهجاء لعددِ ثمنِ الكتاب بحساب الجُمَّل، ثم يلصق ذلك على طرف جلدِ الكتاب من داخل، ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأبّد، فإذا شذّ عن ذهنه كميةُ ثمنِ كتابٍ ما من

1- نكث الهميان في نكت العميان، تأليف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (المتوفى: 764هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1428 هـ - 2007 م: 190 -191.

كتبه؛ مسَّ الموضع الذي علَّمَه في ذلك الكتاب بيده؛ فيعرف ثمنه من تَنْبِيتِ العددِ الملصق فيه"[1].

ولا شك أن ما قام به هذا العالم البصير أبو حسن الحنبلي الآمدي في القرن السابع الهجري تجربة ذكية لمعرفة الكتابة التي أخذت طريقتها الوافية في اشتهار برايل الفرنسي بها في القرن الثالث عشر الهجري.

طباعة المصحف بلغة برايل:

على موقع العربية بتاريخ الجمعة 19 ذو الحجة 1428هـ - 28 ديسمبر 2007م النبأ التالي: "أنهت مطابع خادم الحرمين الشريفين لطباعة القرآن الكريم بطريقة برايل لاستخدامات المكفوفين طباعة المرحلة الثالثة، وبذلك تكون تلك المطابع، أتمّت طباعة القرآن الكريم بطريقة "برايل" بشكل كامل."

وكانت أول ظهور لنظام برايل في العالم العربي عن طريق منصّرة انجليزية تدعى (لوفيل) حيث جاءت به إلى مصر عام 1295هـ 1878م، ثم تفرّع عنه عدد من الأنظمة في بعض البلاد العربية، فكان يُقرأ بعضها من اليمين، وبعضها الآخر من اليسار، إلى أن تمّ توحيده في نظام عربي موحّد في مؤتمر بيروت (لبنان) الذي عقد تحت إشراف اليونسكو عام 1951م"[2].

ويهدف هذا المشروع إلى ضرورة الاتصال المباشر بين المكفوفين وبين القرآن الكريم للارتقاء بمستواهم الثقافي والروحي، وتعويض الكفيف عن فقدانه نعمة البصر بنعمة قراءة القرآن الكريم وتعلمه، وهي نعمة البصيرة الحقة.

حكم طباعة المصحف بلغة برايل:

1- المصدر السابق: 191.

2- جهود المملكة العربية السعودية في مجال طباعة القرآن الكريم بطريقة برايل، بحث للدكتور ناصر الموسى:4.

من المعلوم أن الخط ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

1-الخط العثماني: ويسمى رسم المصحف، أو الرسم العثماني، وهو الخط السائد أيام الصحابة رضي الله عنهم.

2-الخط الإملائي المعروف.

3-خط العروض، وهو خط جرى على ما أثبته اللفظ، وإسقاط ما حذفه، أي كل ما يُنْطق به يُرْسم، سواء وافق القواعد أم لا.

والكتابة بلغة برايل توافق الرسم العثماني من حيث المضمون وتوصيل المعنى المراد، ولكنه يوافق الخط الإملائي غالباً في شكله، ولا تشتمل على القراءات القرآنية.

والرأي الراجح في كتابة المصحف هو وجوب التزام الرسم العثماني، ويجوز بغيره للمتعلمين من الصبيان وغيرهم، كما يجوز به في الصحف والمجلات.

وقد يقال: يمكن تعليم القرآن الكريم للكفيف عن طريق السماع والحفظ، نقول: ولكن لا يتيسر لكل كفيف من يلقنه، ومن المستحسن أن نيسِّر له الأمر، وقد انتفع بهذا النظام كثير من المكفوفين، والمنع من ذلك لا دليل عليه.

كما أننا بحاجة إلى كتابة القرآن الكريم وفق المنطوق؛ لأن النطق هو الموافق لما تلقى به القرآن ملفوظاً لا مكتوباً، وينبغي الالتزام ما أمكن بالرسم العثماني، حيث يمكن ذلك في بعض الألفاظ بما في نظام برايل من رموز، والمصلحة المترتبة على طباعته أعظم وأكثر نفعاً من المنع من طباعته على نظام برايل، وديننا يقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد.

تفسير المترفين وترف المفسرين ..!

علم التفسير علمٌ يخص تفسير القرآن الكريم، والتفسير لغة: تدور مادته حول معنى الإيضاح والبيان والكشف مطلقاً سواء أكان هذا الكشف لغموض لفظ أم لغير ذلك.

التفسير اصطلاحاً: كشف معاني القرآن وبيان المراد منه، وهو أعم من أن يكون بحسب اللفظ أو المعنى المشكل وغيره.

وينقسم هذا العلم إلى أربعة أقسام، أخرج ابن جرير الطبري عن طريق سفيان الثوري عن ابن عباس رضي الله عنهما:

تفسير تعرفه العرب من كلامها.

وتفسير لا يعذر أحد بجهالته.

وتفسير يعلمه العلماء.

وتفسير لا يعلمه إلا الله.

وظهرت اتجاهات متعددة في التفسير، فمنها: التفسير بالأثر، والتفسير بالرأي، والتفسير العلمي، والتفسير الاصطلاحي، والتفسير الموضوعي، والتفسير الإشاري، والتفسير الفقهي، وغير ذلك.

ولكن هناك أنواع من التفاسير يمكن أن يقال عنها بأنها تفسير المترفين أو ترف المفسرين؛ لا تليق بعظمة كتاب الله تبارك وتعالى، وهي تفاسير مشتملة على كثير من التعسُّف والتكلُّف يؤدي إلى لَيِّ أعناق الألفاظ، ومشْرَب بكلمات حوشية ووحشية، علاوة على كثير من الركاكة في التعبير.

من تفاسير هذا النوع: تفسير القرآن الكريم شعراً ونظمًا، يقول حاجي خليفة :

"وقد أنكر كثيرٌ من العلماء هذا النوع من النَّظْم؛ لأنه يؤدي إلى إخراجِ القرآن العظيم من نظمِه الشريف؛ لإدخاله في الوزن ما لم يكن من النَّظْم الشَّريف"[1].

- نموذج من النَظْم [من تفسير سورة المسد] من كتاب: التيسير العجيب في تفسير الغريب لابن المنَيِّر (ص: 234):

﴿تَبَّتْ﴾ بمعنى خَسِرَتْ وخابتْ وأخطأت قطعاً وما أصابتْ
و﴿كَسَبَ﴾ المرادُ كسْبُهُ الولدْ لم يُغْنِ عنهُ مالهُ ولا العددْ
و﴿الحَطَبُ﴾ الشوكُ وكانت تُلقيهِ عند طريق المصطفى لتُؤذيهِ
وقيـــل بـل تَنُمُّ بـالأخبـــارِ تُـوقـدُ نـارَ الـشَّرِّ والشنارِ

- نموذج آخر أيضاً من كتاب: دلائل التبيان في نظم غريب القرآن، لقاسم بن الحسن بن موسى بن شريف آل محي الدين الجامعي العاملي النجفي، المتوفى سنة 1376 هـ:

وفَسَّـروا ﴿القـثاء﴾ بالخيـارِ أو ما يُضاهـيه من الأثـمارِ
وقيل مطلق الحبوب ﴿الفوم﴾ أو قمح أو خبز وقيل الثوم

و﴿بَاءُوا﴾ بمعنى انصرفوا أو رجعوا وهي لغير الشَّرِّ ليست تُسمعُ
﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ من هم قد خرجوا عن دينهم وفي ســواه ولجوا

1- كشف الظنون؛ لحاجي خليفة: 1/ 454.

ومن ترف التفاسير وتفسير المترفين أيضاً: تفسير القرآن الكريم بالحروف المهملة، أي: الحروف غَير المنقوطة وفيه غايةَ التكلُّف حيث يحشد من حوشي اللغة ما يُتمم به عمله كيفما كان، من ذلك:

"سواطع الإلهام لحَلِّ كلام الله الملك العلاَّم" تأليف: لأبي الفيض فيضي بن المبارك الأكبر آبادي الهندي، المتوفى سنة 1004 هـ، قال في أوله :

"أحامد المحامد ومحامد الأحامد لله مُصعد لوامع العلم، ومُلهم سواطع الإلهام، مُرَصِّص أساس الكَلم، ومُؤسس مُحكَم الكلام...".

نموذج من تفسيره:

"﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾: الملَكَ المدعو روحًا، وإدلاؤه لله إكرامٌ له، ﴿فَتَمَثَّلَ﴾: لاح ﴿لَهَا﴾: الملَك المرسل ﴿بَشَرًا﴾: امرأً أملح ﴿سَوِيًّا﴾[مريم: 17]: كامل العَطَل ﴿قَالَتْ﴾: للروح ﴿إِنِّي أَعُوذُ﴾: أُمْسِكُ وأركحُ ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾: الله واسع الرُّحْمِ؛ لكمالِ صلاحها، ﴿مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 18]: ورعًا راحمًا".

وعند الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يقول:: "صلعم ".

قال العلاَّمة محمد صديق بن حسن خان القنوجي عن مؤلفه: " كان فيضي على طريقة الحُكَماء، وكذا إخوانه، وكانوا معروفين بانحلال العقائدِ، وسوءِ التديُّن، والإلحاد، والزندقة، نعوذ بالله منها ... صَنَّفه في سنتين، وأتمَّه في سنة 1002 هـ، يدلُّ على إطالة يده في علم اللغة"[1].

1- أبجد العلوم، للقنوجي، طبعة دار ابن حزم: 698.

تفسير الكلام المبَجَّل، المسَمَّى: "دُرُّ الأسرار"؛ للشيخ محمود بن محمد نسيب بن حسين بن يحيى حمزة الحسيني الحمزاوي الحنفي، مفتي الديار الشامية، المتوفى سنة 1305 هـ، بدأ تفسيره بدل البسملة بقوله: "اسم الله العلاَّم أول الكلام."

نموذج من تفسيره :

"﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7]: هم الهود، وكلُّ عاصٍ، وهو الأعمُّ، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]: لدعوى الأهل والولد للواحد الأحد، أو أولو العمى وعدم العلم."

"﴿إِذْ نَادَى﴾: دعا ﴿رَبَّهُ نِدَاءً﴾: دعاءً ﴿خَفِيًّا﴾ [مريم: 3]: سِرًّا، وإسراره له إمَّا لعدم إطْلاع أحدٍ على دعائه، أو لعدم لومِ أحدٍ له على رَوْمِهِ الولد مع هرَمه، أو لهرمه صار كلامُه ودعاؤه همسًا."

ولفظ النبي صلى الله عليه وسلم يذكره في تفسيره دائمًا بلفظ: "الرسول محمد" تجنبًا لنقط الحروف، وعند الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، يقول: "صلى الله على روحه وسلم."

وعند ذِكر أحد الأنبياء، يقول: رَدَّد الله له أكمل السلام، بدل: عليه السلام.

وهناك تفاسير أخرى على هذا النمط من ذلك:

التفسير المعمول من غير الحروف المنقطة؛ لعلي بن قطب الدين البهبهاني، المتوفى سنة 1206 هـ، وهو تفسيرٌ كبير في ثلاث مجلدات.

تفسير سورة الفاتحة بالحروف المهملة؛ لعبدالسلام بن السيد عمر بن محمد الحنفي المارديني، مفتي ماردين، المتوفى سنة 1259 هـ.

تفسير سورة الفاتحة بالحروف المهملة؛ لعلي بن محمد الحزوري الآمدي الشافعي، مفتي آمد، المتوفى سنة 1210 هـ.

العلمانيّ الحُرّ والقرآنُ الآراميّ..!

أصدر المستشرق الألماني وبروفيسور اللغات السامية والعربية القديمة (كرستوف لوكسنبرغ) في عام 2000 م كتابه: "قراءة آرامية سريانية للقرآن، مساهمة في فك رموز لغة القرآن الكريم" باللغة الألمانية .

Die syro-aramäische Lesart des Koran: Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache ،2000

وترجمت إلى اللغة الأنجليزية عام 2007م، أثار هذا الكتاب جدلاً عالمياً حول تاريخ وفقه اللغة التاريخي والمقارن، وقد تلقّى تغطية كبيرة في وسائل الإعلام الرئيسة وبشكل غير معتاد، حيث يطرح الكتاب نظرية تقول: أن القرآن لم يكن في البداية مكتوباً بصورة كليّة باللغة العربية ولكن بمزيج من العربية والسريانية (السورية القديمة)، اللغة المنطوقة والمكتوبة السائدة في الجزيرة العربية خلال القرن الثامن.

وقد قَبِل بعض الأكاديميين نظرية لكسنبرغ بحماس شديد، بل أقام الألماني "فيسنشافتسكولغ" (معهد الدراسات المتقدمة) في برلين عام 2004 مؤتمراً أكاديمياً يركز فيه على نظرية لكسنبرغ، وشُكّلت خلية عمل عالمية للاستمرار في مناقشة هذا الموضوع، لكن كثيراً من المناقشات في المؤتمر كانت ناقدة لهذه النظرية، إلا أن عديد المختصّين أكدوا على أن عمل لكسنبرغ هو عمل قيّم، بل أظهر مؤتمر أقيم عام 2005 في جامعة نوتردام (نحو قراءة جديدة للقرآن) بشكل واضح الازدياد في قبول أسلوب لكسنبرغ.

وفي هذه الأيام انتشر مقال على الشبكة العنكبوتية وفي موقع (مفكر علمانيّ حرّ) بعنوان: {القرآن الآراميّ} ..!

يقول كاتبه فيه:

"كشف علماء اللغات السامية الآرامية السريانية أن القرآن الذي كتب في زمن محمد وعثمان بن عفان بالخط النبطي والحجازي ثم الكوفي الغير منقط ومن غير حركات ولا همزة، إنه كان خليطاً بين السريانية الآرامية وبين العربية .

وقد احتوت الآيات على الكثير من المفردات السريانية التي تدل على معاني مختلفة تماماً عما تم كتابته فيما بعد التعريب والتنقيط وإضافة الحركات والمد والشدة والهمزة، وقد كان بعض كتبة القرآن والنساخ يجهلون معاني الكلمات السريانية، فعربوها بطريقة خاطئة بغير معناها الحقيقي، أو تركوها على حالها لجهلهم بمعناها، وهناك أدلة كثيرة على هذا سنمرُّ عليها في هذا المقال."

ويذكر جملة من الأدلّة أهمها:

1- (المستشرق الألماني جيرد بوين (كان رئيساً لمشروع ترميم وفحص المخطوطات القرآنية القديمة المكتشفة في صنعاء في اليمن في عام 1972) ألف كتاباً بعنوان (قراءة آرامية سريانية للقرآن) تحت اسم مستعار هو (كريستوف لوكسنبرج) عام 2000، وعمل مساعداً له الأستاذ في المخطوطات العربية القديمة (محمد المسيّح) من المغرب .وقال: إن 25% من كلمات القرآن مبهمة وغامضة أو أساء المفسرون تفسيرها لأنهم لم يفهموا جذورها السريانية الآرامية.

2- (المستشرقون المتخصصون مثل" البروفيسور الأمريكي: غبريال صوما، والدكتور إبراهيم مالك الخبير في اللغات الشرقية والذي يجيد اللغة السريانية، والمستشرق الألماني جيرد بوين" يقولون: إن القرآن الأصلي الذي كتب بالخط الحجازي والكوفي الغير منقط والغير مشكل بالحركات والشدّة والهمزة، هو كتاب أقرب للسريانية منه للعربية.

3- (يقول المستشرقون: إنّ اسم محمّد؛ هو صفة للمسيح، أو لله، وليس اسماً لمحمد من الأصل، فمحمد تعني: الممجّد المحمود، وهذه صفةٌ لله، وليس للبشر.

4- (جاء في مسند الإمام أحمد والمستدرك على الصحيحين، أن النبي محمد طلب من كاتبه زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة السريانية ليترجم له الكتب التي تصله بالسريانية، وقد تعلمها فعلاً، وأن زيداً هو من كتب القرآن الذي كان محمد يمليه عليه، وفي عهد عثمان بن عفان اختير زيد مرة أخرى مع ثلاثة آخرين لإعادة كتابة القرآن الموحد حسب توجيهات عثمان، وقد استعملت الكلمات السريانية ممزوجة مع العربي.

5- (جاء في كتاب فتوح البلدان للبلاذري: "اجتمع ثلاثة نفر من طئ ببقعة، وهم مرامر بن مرة، و أسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية.

6- (آثار اللغة السريانية لا زالت باقية في القرآن الحديث، حيث نجد أن كلمة (زكاة وصلاة) تكتب بالهجة السريانية هكذا (زكوة) و(صلوة) مع ألف قصيرة فوق الواو ، و (رحمان) تكتب (رحمن)، وفي بداية سورة الفاتحة (بسم الله) وليس (باسم الله) وهذا ما يكتبه و يلفظه السريان بلغتهم واصلها (بشيم الاها).

7- (من المصطلحات السريانية الأصل كلمة (أبّاً)، ولم يعرف عمر بن الخطاب ما تعنية كلمة (وفاكهة وأبّاً) في سورة عبس، وكانت (أبّاً) تكتب قبل اختراع الشدة (أبب)، أي يكرر الحرف الباء، وبالسريانية تعني الفاكهة الناضجة وفي العربية لا معنى لها؛ ولهذا لم يفهم عمر بن الخطاب معناها.

8- (كلمة (قرآن) هي كلمة سريانية الأصل وليست عربية، فهي مأخوذة من كلمة (قريانا) السريانية، وتعني كتاب القراءات أو الصلوات الكنسية، وتم استعارة هذا الاسم من السريانية ونسب للقرآن لتشابه الوظيفة.

وبعد قراءة هذا المقال السخيف، الواضح ضحالته وسطحيته، والذي يفتقر لأبسط أسس وقواعد البحث العلمي، شرعت في الرد على هذه الشبهات الواهية أصلاً؛ خشية أن يفهم بعض القراء أنه مقال مهمّ.

أولاً: وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه (عربيّ) في أكثر من آية، ومن أصدق من الله قيلاً، كما في قوله تعالى:

-﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: 103].

-﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين (195)﴾[الشعراء].

-﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

-﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: 28].

-﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾ [الزخرف: 3].

ثانياً: اللغة الآرامية والعربية الفصحى هما لسان واحد وجذر لغوي واحد (كما هو معلوم في علم اللسانيات الحديث)، وليست هنالك كلمات آرامية لا معنى لها في الفصحى، ولذلك تجد مفرداتٍ كثيرةً مشتركة بين هذه اللغات في الرسم والنطق، فتجد (السلام) في العربية تساوي (تشا لم) في السريانية، و(شالوم) في العبرية.

كما تجد كلمة (آمين) مشتركة بين جميع اللغات السامية، التي جاءت بها رسالات الله تعالى إلى بني الإنسان، فالعرب يقولون: (آمين) بترقيق حرف المدّ، والعجم يقولون: (آمِن) واليهود يقولون: (هامين، آمين) بتفخيم حرف المدّ، والنصارى حسب اللغة السريانية يقولون: (آمين) مع التفخيم.

ومن هنا فمن البديهي أن تكتب الفصحى بالاستناد إلى الأسس الآرامية والسريانية، ولكنها تبقى ألفاظاً عربية فصيحة لها معانيها المعروفة، ومن البديهي أيضاً أن تكون المعاني في الآرامية والسريانية والفصحى واحدة: فهي جميعاً لغة واحدة في مراحل مختلفة من التطور.

ثالثاً: مسألة تعلّم زيد بن ثابت (السريانية) صحيحة، لكن في بعض روايات الحديث (لغة يهود) وفي بعضها (كتاب يهود)، وأوضح النصوص المعبّرة؛ ما أخرجه الترمذيّ في جامعه (2715) قال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِيهِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ [الكتابة].

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: (إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ!) يعني: لا يأمنهم على رسائله.

قَالَ زيدٌ: فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ، حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ.

قَالَ: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ؛ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ؛ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ؛ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ) [المراسلات].

قال الترمذيّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الوَجْهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَتَعَلَّمَ السُّرْيَانِيَّةَ).

ومهما يكن فإن زيد بن ثابت؛ لم يجمع القرآن في زمان أبي بكر رضي الله عنهما؛ لأنّ لغة القرآن كانت سريانية، وإنما لأنه كان متقناً لحفظ القرآن الكريم، ومتقناً للكتابة العربية.

يؤكّد هذا أنّ عثمان بن عفان حين عهد إلى زيد بن ثابت رضي الله عنهما بنسخ القرآن الكريم؛ جعل معه جماعة من قريشٍ، ولم يوكل الأمر إليه وحده.

فقد أخرج البخاري في صحيحه (3506) عَنْ أَنَسٍ أَنَّ عُثْمَانَ دَعَا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ العَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي المَصَاحِفِ.

وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ القُرَشِيِّينَ الثَّلاَثَةِ: (إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ، فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ) فَفَعَلُوا ذَلِكَ.

فهذا نقيض ما زعم المستشرقون المختصون من أنهم توصلوا إليه!..

رابعاً: تمثيلهم على ما ذهبوا إليه من اختلاف الرسم القرآني في بعض الكلمات مثل: (الزكوة، الصلوة، بسم الله) وغير ذلك؛ تمسك بريحٍ، وطمر للرأس كالنعامة في رمال الخديعة!..

فليست العمدة في نقل القرآن العظيم على المصحف المكتوب، بل العمدة على الحفظ، والتلقي من أفواه القرّاء الضابطين والمتقنين، بالسند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم ينقل لنا إطلاقاً أيّ خلاف بين القراء الكبار حيالَ تلاوةِ أيّ آية من كتاب الله تعالى، سواء كان الرسم (نعمة = نعمت) أو (الصلوة، الزكوة) فالجميع يقرؤونها (الصلاة، الزكاة).

واختلافهم يكون في التحقيق والإمالة والنقل والتسهيل، ومراعاة الوقف، وغير ذلك من أوجه النطق، لكن تبقى الصلاة هي الصلاة لفظاً ومعنى، وتبقى الزكاة، هي الزكاة لفظاً ومعنى، وهكذا.

خامساً: قولهم: إنّ اسم محمّد؛ هو صفة للمسيح، أو لله، وليس اسماً لمحمد من الأصل؛ فيدلّ على منتهى الإسفاف والاستخفاف بعقول المفتونون بما يأتي من المؤسسات الغربية الماكرة.

ومن باب الإلزام؛ سنسوق الآيات التي ذكر فيها اسم الرسول (محمد) صلى الله عليه وآله وسلم؛ لتستيقن أخي القارئ أنهم حقّاً، يكذبون ولا يستحيون!

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصفّ: 6].

فهل يصلح هنا أن تقول: ومبشراً برسول من بعدي اسمه المسيح؟

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

فهل يقبلون هم أن نقول: ما المسيح إلا رسول قد خلت من قبله الرسل؟

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:40-41].

فكيف يفهمون هذه الآية عبرياً، أم سريانياً؟!

ألا تلاحظون أنّ سياق الآيات لا يمكن أن يدلّ على غير الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهم أنفسهم يرفضون مضامين هذه الآيات.

فالآيات تدلّ دلالةً واضحةً على أنّ (محمّداً) صلى الله عليه وآله وسلم، عبد لله ورسوله، لكنهم هم أنفسهم يرفضون ذلك، فيقولون: المسيح هو الله، أو ابن الله، تعالى الله عن إفكهم علوّاً كبيراً.

سادساً: أمّا عن عدم معرفة عمر رضي الله عنه لمعنى كلمة (الأبّ) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32)﴾ [سورة عبس].

فأستبعد صحّة ذلك عن أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه، إذ الآية توضح معناها: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أي أنّ من هذه النعم ما تفضّل الله علينا به لأنفسنا، ومنه ما تفضل علينا به لمواشينا.

والرواية واردة من غير طريق عن أنس بن مالك رضي الله عنه، في تفسير الطبريّ وغيره، وليس في الصحاح أيّ طريق منها.

وما ينفرد به أنس بن مالك؛ دون سائر الصحابة؛ فللفقهاء فيه نظر خاصّ؛ لأنه خرف في آخر عمره، وهو من رواة الصحابة، وليس من علمائهم، رضي الله عنهم جميعاً.

سابعاً: أما مسألة أصل كلمة (قرآن) فمن حيث الاشتقاق وعدمه هي مسألة خلافية، وإن كنتُ أرى أنها مشتقة من (قرأ) بمعنى جمع وأظهر وتلا معاً؛ لأن طبيعة القرآن كذلك، فبداية نزوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وعلى هذا الجمهور من العلماء من اللغويين وأهل التفسير، ولكنهم اختلفوا في المشتق منه، فقال الأشعري: بأنه مشتق من (قَرَنَ)، بمعنى ضم، وقال الفراء: بأنه مشتق من القرائن، جمع قرينة؛ لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً،

ويشابه بعضها بعضاً، وعلى هذين الرأيين فالقران غير مهموز، ونونه أصلية، لأنه من (قرن). وهذان الرأيان فيهما ضعف.

أما رأي جمهور العلماء، ومنهم ابن فارس صاحب (مقاييس اللغة)، بل هو يرى أن «(قرى) و (قرأ) بمعنى واحد، وهو يدل على جمع واجتماع، ومن ذلك القرية، سميت بذلك لاجتماع الناس فيها، ويقولون: قريت الماء في المقراة، جمعته... ويقولون: ما قرأت هذه الناقة سلىً كأنه يراد (أنها ما حملت قط... قال ومنه القرآن، كأنه سمي به لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك»[1].

ويرى الراغب الأصفهاني في (المفردات) أن القرآن في الأصل مصدر، مثل الكفران والرجحان، وهو بمعنى القراءة.

ويرى بعض العلماء أن (القرآن) مشتق من قرأ بمعنى أظهر وألقى، لا بمعنى جمع.

ولذلك يقول الزركشي: "وقال بعض المتأخرين: لا يكون القرآن وقرأ بمعنى جمع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ فغاير بينهما، وإنما مادته (قرأ) بمعنى (أظهر أو بيّن) ".

وهناك من قال: بأن القرآن غير مشتق وهو قول شيخ الشافعي إسماعيل بن قسطنطين، وقد ذكر ذلك عنه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (2: 62) الطبعة القديمة، قال الشافعي: "... وقرأت على إسماعيل، وكان يقول: القرآن اسم، وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولو أُخِذ من قرأت؛ لكان كل ما قرئ قرآنًا، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل.

يهمز قرأت، ولا يهمز القرآن ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ يهمز قرأت، ولا يهمز القرآن". انتهى.

1- مقاييس اللغة، لابن فارس: 5/78-79.

وأخيراً: أختم بقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف:8].

الشحرور.. والدين الجديد

ولد محمد أديب شحرور في مدينة دمشق عام 1938م، ودرس المراحل الأولى من تعليمه في دمشق، وقبل أن يسافر إلى الاتحاد السوفياتي كان شيوعياً واشتراكياً فانتسابه للحزب الشيوعي هو سبب بعثته إلى روسيا، وفي الأصل ابتعث لدراسة هندسة ميكانيكا التربة والأساسات أواخر الخمسينات، ما بين (1958 - 1964م) زمن وجود الاتحاد السوفياتي.

نال الماجستير في الهندسة المدنية (اختصاص ميكانيك تربة وأساسات) جامعة دبلن – إيرلندا 1969م، و الدكتوراه في الهندسة المدنية، من جامعة دبلن أيضاً عام 1972م.

وبذلك اكتمل تأثره بالمستشرقين خلال دراسته في إيرلندة «دبلن»، لدراسة الماجستير والدكتوراه[1].

أما الظروف التي أثرت في نمط تفكيره فهي انهيار الاتحاد السوفياتي، والدعوة للتخلص من الكيانات الشمولية، والدعوة للحريات الديمقراطية حيث: شيوعية مفككة، وإسلام متشدد، ورأسمالية ديمقراطية نشطة تسيطر على فكر المفكرين وخاصة العرب، من هنا كان المولود الأول كتابه الذي أسماه: (الكتاب والقرآن . قراءة معاصرة .) 822 صفحة، ويقر الشحرور فيه أن النتائج التي توصل لها الكتاب لا توجد في كتب السلف، دون أن يصرح ما هو مراده من السلف؟ هل هو سلف لغوي؛ أو سلف فلسفي؛ أو سلف ماركسي وهو الأرجح.

ولا تعجب أخي القارئ فحينما نقلب صفحات الكتاب من أوله إلى آخره لا نجد دعوة ولو مرة واحدة إلى تغيير النظام السياسي المسيطر!

1- النزعة المادية في العالم الإسلامي، عادل التل، ص297.

ويزول العجب حين نرى (بيليترو) وهو أحد مستشاري الخارجية الأمريكية في خطاب ألقاه أمام مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك بتاريخ 8/ 5/ 1996 . يثني على مجموعة من الكُتَّاب العلمانيين الذين أُطلق عليهم عمداً لقب (الباحثين الإسلاميين والمجددين) وأشاد فيه بثلاثة كتّاب هم: محمد سعيد العشماوي من مصر، ومحمد أركون من الجزائر، ومحمد شحرور من سورية..!

وفي الآونة الأخيرة لفت نظر كثير من المثقفين ظهور المهندس محمد الشحرور في القنوات الفضائية، وهو يقدم التفسيرات الشاذة للقرآن الكريم، إذ يحرِّف ويضلل ويبدِّل ويشوّه ويُفسِد كثيراً بتحليل المحرمات، ويخدع الناس بلغة عربية ملائمة مع المعطيات الفكرية المعاصرة ليلبِّس على الناس، إذ يأتي بمعانٍ لمفردات قرآنية تخالف نظم الآية القرآنية وسياقها وسباقها ولحاقها، ويحاول أن يلوي أعناق الآيات لتتناسب في فكره الذي يعتنقه، ويظن أنه إذا قال: (ولا الضالّون)، ردّد الخلق جميعاً: (آمون)..!

واتسعت أزمة استضافة تلفزيون أبو ظبي للشحرور، وباتت قضية الرأي العام في دولة الإمارات، وقد قاد عضو المجلس الوطني الاتحادي، (سعيد الرميثي) حملة شعبية تدعو إلى إيقاف البرنامج.

يذكر أن هدف الشحرور من ذلك كله تفكيك الآيات وقراءتها بطريقة انتقائية إذ يأتي بمجتزآت قرآنية ليوجهها توجيهاً باطلاً، ويُعرض عن باقي الآيات، فهو يقرأ القرآن ليس قراءة معاصرة كما يدعي؛ بل قراءة ماركسية.

وقد أوضح علماء اللغة العربية أن الشحرور جاهل باللغة العربية وأساليبها، والعجيب أن الذي عمل تقديماً لكتاب الشحرور هو صديقه الذي التقاه بروسيا إنه (جعفر دك الباب) الذي يقول:

تقديم المنهج اللغوي في الكتاب بقلم: الدكتور جعفر دك الباب.

(لقد توصل الدكتور شحرور في قراءته المعاصرة إلى نتائج جديدة مغايرة لما هو سائد الآن في التراث العربي الإسلامي).

ثم يحرِّف جملة وينسبها لابن جني الذي لم يقل بهذه الفكرة أصلاً: (انطلق ابن جني من منطلق وصف البنية اللغوية..) إلى أن قال: (ويعني هذا أن ابن جني لجأ إلى الوصف التطوري لبنية الكلمة الذي يأخذ بالاعتبار عامل الزمن).. !

طبعاً هذا الافتراء والتلفيق على ابن جني والجرجاني وأبي علي الفارسي وغيرهم ليخدم بها أفكار الشحرور.

وقد ردّ عليه الأستاذ القدير يوسف الصيداوي اللغوي المشهور في كتابه (بيضة الديك) الذي ألَّفه رداً على كتاب الشحرور، ومعلوم أن الديك لا يبيض فهذا شحرور على سبيل المجاز بيضة ديك، فتصدى الأستاذ الصيداوي له مفنداً مزاعمه في اللغة، ومبيناً أنه لا يفقه فيها شيئاً، دون أن يتدخل في أي رأي ديني عرض له المؤلف، وإنما اكتفى في مقدمته بترديد مقولة عبد المطلب بن هاشم لأبرهة الحبشي عندما جاء يغزو الكعبة: (إن للبيت رباً يحميه)، وعندما قُدِّم كتاب الصيداوي إلى وزير الإعلام السوري آنذاك، غضب الوزير وانفعل، واستدعى الأستاذ يوسف الصيداوي إلى مكتبه، ومما قاله للصيداوي :

(لماذا حصرتَ نقدك للكتاب في اللغة العربية فقط أَلَمْ تجد في الكتاب شيئاً تنقده سوى اللغة؟!)

فأجاب الأستاذ الصيداوي:

(بلى لقد وجدتُّ كثيراً، ولكني رأيتُ رجلاً مهندساً بنى صرْحاً شامخاً على بساط من اللغة العربية فسحبت البساط من تحته فقط!).

فضحك الوزير وانفضّ المجلس[1].

ويعترف الشحرور في أكثر من لقاء بأنّه توجه لدراسة القرآن كردّ فعل على نكسة 1967م، ومن هنا نفهم تماماً النفسية المنهزمة التي توجّه بها الشحرور إلى كتاب الله، وهو أمر واضح من منهجه، إذ يستعرض نموذجاً تطبيقياً على منهجه هذا في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران: 14].

ويقول إنّ الآية تتحدث عن (مَتَاع)، يعني أشياء وحاجات؛ وليس عن مخلوق عاقل، فهو ينكر أن يكون معنى (النِّسَاءِ) جمع امرأة، وإنما يزعم أنّ النساء هنا جمع (نسيء)!، أي التأخير، ومن ثمّ يصبح المعنى: الأشياء المؤخّرة، أي الأشياء الجديدة المحبوبة للناس، أو بعبارة أوضح: الموضة!..

وماذا عن ﴿وَالْبَنِينَ﴾؟! وكذلك ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ وأيضاً ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ .. يعرض الشحرور عن تفسير كل ذلك، فقد أخذ ما يحلو له فقط واجتزأها من الآية، وفسرها تفسيراً غير مقبول لا عقلاً ولا لغة ولا شرعاً .. وهكذا كل طاماته.

وفي الحقيقة الرجل لا يستحق الرد لكونه يخلط الحابل بالنابل ليصل إلى ما يريد، وليس له إلمام بعلم اللغة ولا بالشريعة، ولكن جاء هذا الرد خشية أن يفتتن به بعض من الشباب، وسأكتفي بتعداد بعض الأمور التي يدعو إليها الشحرور وهي مخالفات واضحة لكل ذي عينين:

1- الحادثة مذكورة في مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد 101 السنة السادسة والعشرون - كانون الثاني 2006 - المحرم 1427.

1–العلاقات الجنسية في العالم كله 90% حلالٌ؛ لقيامها على التراضي بين الطرفين ولو كانت في بيوت الدعارة.

2–الزنا بين الرجل والمرأة حلالٌ بالتراضي إذا كان مع امرأة غير متزوجة، وذلك باسم مُلْك اليمين، كما أباح (المساكنة بينهما) ولو لم يكن بينهما عقد زواج.

3– الخمر ليس حراماً.

4– المسلم المكلف المستطيع هو بالخيار إن شاء صام شهر رمضان وإن شاء أفطر ودفع الفدية.

5– –يجب على المرأة أن تغطي الجيوب الأربع فقط وهي: (تحت إبطيْها وبين فخذيْها)، ويباح لها كشف شعرها وأكتافها وفخذيها وساقيها، وأن الإسلام جاء بإلغاء الحجاب للمرأة.

6–المصحف هو النص المقدس الوحيد، ولا دور للسنة النبوية في التشريع، وما قام به النبي صلى الله عليه وسلم من أحكام وتشريعات خاص بعصره فقط.

7–ينكر الشحرور معجزة الإسراء والمعراج.

8–الربا جائز؛ بشرط ألا يزيد على ضعف رأس المال في السنة الواحدة.

9–ينكر وجود الروح في الإنسان، ويفسرها بأنها عبارة عن المعرفة التي يكسبها الإنسان.

10– يبيح الشحرور التبنِّي الذي جاء القرآن الكريم صراحة بتحريمه، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب:4–5].

هذا كله غيض من فيض، فالرجل دعوته خطيرة من جهة المآلات، ولا يتقن صناعة الرد على خصومه؛ لأنه لا يمتلك الأدوات المعيارية لنقدهم، وغالباً ما يتعذر بأنه أخطأ أو أنه قد بقيت فيه رواسب من التراث.

الدعوة لحذف آيات قرآنية
انحطاطٌ سياسيٌّ ولعبٌ بالنار

ندَّدتْ قياداتٌ من مسلمي فرنسا بمقال نشره المدير السابق لمجلة «شارلي إيبدو»، الفرنسية، (فيليب فال)، تحت عنوان "ضد معاداة السامية الجديدة" طالب فيه بحذف آيات من القرآن الكريم، وكان «فال» قد قال في دعوته التي نشرها في مجلة «لوباريزيان»، وصحيفة «جورنال لو دومانش»، في أبريل/ نيسان عام 2018م:

"إن هذه الآيات عفا عليها الزمن، وتعتبر معادية للسامية في فرنسا، وإن اليهود أصبحوا مهددين بشكل كبير في فرنسا، وإن سبب صمت السلطات هو اعتبارها التطرف الإسلامي مجرد ظاهرة اجتماعية، مشيراً إلى أن الفاتيكان ألغى نصوصًا في الكتاب المقدس غير متناسقة ومناهضة للسامية، بحيث لا يستطيع أي مؤمن الاعتماد على نص مقدس لارتكاب جريمة".

عجيب جداً زج مصطلح (معاداة الساميّة) هنا! لأنه مصطلح غبيّ كونه عنصريّا لأن العرب ساميّون، حسب تقسيمات علماء الأجناس الأوروبيين في القرن التاسع عشر الذين ساهموا بإنشاء هذا المصطلح، بينما نسبة كبيرة من اليهود سلافيون وقوقاز وحتى آريون.

ومعاداة السامية: تيّار سياسي غربيّ ظهرت تجلّياته الكبرى ضمن التاريخ السياسي لأوروبا، وهذا التيار الذي أجج (المسألة اليهودية)، خلال فترة الحكم النازي لألمانيا، وأدى لإبادة ملايين اليهود، اعتقدت أوروبا أنها حلّتها بإنشاء دويلة إسرائيل، ففتحت الباب لإشكالية أكبر مع تشكل احتلال استيطاني كان الفلسطينيون هم ضحاياه المباشرون، فأي «معاداة للسامية» أكبر من هذه؟

وحثّ الموقعون الـ300 على المقال - بينهم الرئيس الأسبق نيكولا ساركوزي، ورئيس الوزراء السابق مانويل فالس، والمغنّي الشهير شارل أزنافور، كما وقع على المقال شخصيات عربية وإسلامية، منها الروائي الجزائري بوعلام صلصال، ومحمد علي قاسم، وهو مفتي جالية جزر القمر في فرنسا، والمدون الفلسطيني وليد الحسيني، بالإضافة إلى مغنين وممثلين وكُتَّاب — حثوا سلطات المسلمين على "حذف" آيات من القرآن ادعوا أنها "تحث على قتل ومعاقبة اليهود والمسيحيين والملحدين."

يبدو أن رجال السياسة الفاشلين وأتباعهم الذين يعانون من عدم الاهتمام الإعلامي بهم، وجدوا في الإسلام والمسلمين في فرنسا كبش فداء جديد، فمثل هذه الدعوات تمثّل العنصرية البغيضة، و تسبب في الهجوم والاستعداء على المسلمين هناك، ونشوء حالة من الصراع والاحتراب بين أبناء الوطن الواحد.

إن ظهور هذه الدعوات أو التضامن معها يغذّي ظاهرة الإسلاموفوبيا من جهة، ويعزِّز من شعور الأقليات المسلمة بالتهميش والعنصرية ضدهم من جهة أخرى، ويكون سببًا حتمياً لنمو ظاهرة التطرّف والإرهاب.

أما فكرة أن الدين الإسلامي دموي؛ فإنها فكرة يسهل دحضها بتذكر حروب الإفناء التي أبادت ملايين البشر والتي خاضتها أوروبا نفسها تحت راية الدين في بلادنا وهي (الحروب الصليبية)، وفي العالم الجديد (الأزتك والمايا والهنود الحمر وغيرهم).

ثم ماذا عن الحروب التي لم ترفع راية الدين (نظرياً على الأقل) والتي أدّت لمقتل ملايين البشر، خلال الثورة الفرنسية، والحرب الأهلية الأمريكية، وحرب الأفيون في الصين، وحملات تطهير ستالين، والحربين العالميتين الأولى والثانية؟

إن هذا الاقتراح من شخصيات فرنسية حذف بعض الآيات من القرآن الكريم يعد إساءة للإسلام والمسلمين، واستفزاز يتجاوز الحدود، تدل على جهل مُطْبِق وكراهية واضحة

للإسلام، فليس لدينا آيات تأمر بقتل أحد من دون ارتكاب جريمة، ولسنا مسئولون عن عدم فهم الآخرين لمعاني الآيات وأخذهم بظاهرها دون الرجوع إلى تفاسير العلماء لها، فما ظنه هؤلاء آيات تنادي بقتلهم هي آيات سلام في حقيقتها، فالقرآن الكريم يدعو إلى السلم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[البقرة:208].

أما آيات القتال كلها فواردة في إطار ردِّ العدوان إذا وقع علينا وليس إيقاعه على الآخرين، والادعاء بأن الإسلام ضد الأديان الأخرى في غير محلّه، فالإسلام يحترم الأنبياء ومنهم: كليم الله موسى وكلمة الله عيسى عليهما السلام وديانتهما، ونحن لا نجبر أحداً أن يعتقد ما نعتقد، لكن عليهم أن يحترموا الإسلام، والمطلوب أن نعيش في إطار قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون:6].

علماً أننا إذا بحثنا في كتب اليهود لوجدنا ما يدعو إلى قتل الأطفال والشيوخ والنساء، وفي محتوى التلمود يزعم اليهود: "أن أرواحهم جزء من الله، وأن من يضرب يهودياً فكأنما ضرب العزة الإلهية، وأنهم مسلطون على أموال باقي الأمم ونفوسهم لأنها في الواقع – حسب زعمهم – أموال اليهود."

بينما قال الله تعالى عن الرسول الكريم الذي حمل القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]. ولم يقل أرسلناك للمسلمين فقط، إنه رحمة للمسلم وغير المسلم، بل هو رحيم حتى بالحيوان والجماد والنبات، وكان يوصي جنوده، قائلاً لهم: (لا تُغْرِقُوا نَخْلاً، وَلا تَحْرِقُوا زَرْعًا، وَلا تَحْبِسُوا بَهِيمَةً، وَلا تَقْطَعُوا شَجَرَةً مُثْمِرَةً، وَلا تَقْتُلُوا شَيْخًا كَبِيرًا، وَلا صَبِيًّاً صَغِيرًا) ، فلو كان القرآن يدعو إلى العنف، فكيف يقول الرسول الكريم ذلك؟!

إن تعرض كثير من المجتمعات الإسلامية خلال القرنين الماضيين إلى الاحتلال، والاستيطان، والأنظمة الاستبدادية الطغيانية، والاحتلالات المتنوعة الجديدة، والفساد والطائفية والقمع، هو ما أدّى إلى ظهور نسخ متطرّفة من الأيديولوجيات الإسلامية، فهل السبب هو الدين نفسه أم ما جرى للبشر من مظالم متوحشة وهائلة؟!

وأخيراً للفائدة أقول: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿يُريدونَ أَن يُطفِئوا نورَ اللَّهِ بِأَفواهِهِم وَيَأبَى اللَّهُ إِلّا أَن يُتِمَّ نورَهُ وَلَو كَرِهَ الكافِرونَ﴾[التوبة: 32]، وقوله عز وجل: ﴿يُريدونَ لِيُطفِئوا نورَ اللَّهِ بِأَفواهِهِم وَاللَّهُ مُتِمُّ نورِهِ وَلَو كَرِهَ الكافِرونَ﴾[الصف: 8].

الفرق: أن آية سورة التوبة في الكفار.. أما آية سورة الصف ففي المنافقين.. لأن الكفار يحاربون الإسلام صراحة فجاءت: (أَن يُطفِئوا) .. أما المنافقون فحربهم غير مباشر (لِيُطفِئوا).

وليعلم العالم أجمع أننا لا نخشَ على القرآن الكريم من الضياع والتحوير والتزوير؛ لأن الله عز وجل تكفل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:9].

قَتَلَةُ أهْلِ اللهِ وَخَاصَّتِهِ

تعجز الكلمات أن تعبر عن الألم الذى اعتصر قلب كل مسلم -أكرِّرُ كل مسلم لا كل منافق- على مجزرة وجريمة قتل حفظة كتاب الله تعالى.

فقد أعلنت مصادر إعلامية، الثلاثاء، ارتفاع حصيلة قتلى الغارة الجوية التي نفّذها سلاح الجوّ الأفغاني، في ولاية قندوز بشمال شرق أفغانستان، يوم الاثنين 2018/04/04م على مدرسة أثناء حفل تخريج دفعة من حفظة القرآن الكريم، إلى 100 قتي،. تتراوح أعمارهم بين 8 و17 عاماً.

وقال الشاهد عبد الخليل الذي وصل إلى الموقع إثر القصف واصفاً المجزرة بأن الدماء كانت تملأ المكان، والأرض مغطاة بالأشلاء، رؤوس وأطراف، وأن الجثث معظمها مفصولة الرأس.

هذه الواقعة وصفتها الأمم المتحدة بأنها "مزعجة ومقلقة"، كما وصفت التقارير الإعلامية القصف بأنه "خطأ كارثي."

وقالت الرابطة العالمية للحقوق والحريات في بيان لها: (تحت بصر ومسمع المجتمع الدولي الذي يستتر وراء شعارات رعاية حقوق الإنسان ترتكب مجزرة ضد الأطفال بمدرسة لحفظ القرآن بمقاطعة قندوز).

وأضافت الرابطة: (ويأتي هذا الحادث المروع ليعزز فقدان المجتمع الدولي للثقة والمصداقية في شعاراته بشأن حقوق الإنسان).

وأعرب روَّاد السوشيال ميديا (مواقع التواصل الاجتماعي) عن استيائهم من صمت العرب على مثل هذه الجرائم البشعة، موضحين أن الحرب على الإسلام مستمرة.

إن القصف بالطائرات على حفل لتخريج حفاظ القرآن من الأطفال يسفر عن مئات القتلى وسط تجاهل إعلامي فاضح يدل على خبث الفاعل وكرهه للإسلام، وللأسف لم نسمع من الدول الإسلامية من يدين ويستنكر هذا العمل الإجرامي والإرهابي، لأنهم لا يعتبرون ذلك إرهاباً من وجهة نظر العالم المتوحش والمتآمر لأن الضحايا مسلمون، والمسلمون المتمسكون بالقرآن الكريم بزعمهم يستحقون أشد العقوبات..!

يحاربون هذا القرآن الكريم لأنهم يعلمون يقيناً بأن القضاء عليهم لا يكون إلا بالاعتصام بهذا الكتاب قراءة وفهماً وعملاً وتطبيقاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: 9].

إن حال هؤلاء الغيلان والمجرمين كحال فرعون سيدهم الذي اتهم نبي الله موسى عليه السلام - زوراً وبهتاناً- أنه مفسد في الأرض، وفرعون هو المصلح العظيم؛ كما تفعل أمريكا وحلفاؤها اليوم تماماً، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[غافر: 26].

تخيلوا لو أن معتوهاً طعن بسكين فرداً في إحدى العواصم الغربية كم سيتباكى عليه من أبناء جلدتنا وكم مبنى سيرفع علم بلاد ذلك المطعون؟!

إنهم يمارسون أسوأ معاني الإرهاب باسم مكافحة الإرهاب.. ويجربون مختلف أسلحتهم الفتاكة: طيرانهم وقنابلهم وصواريخهم على الأطفال، والمستضعفين من عباد الله!

ولقد حصلت جريمة مشابهة لهذه الجريمة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، في سرية بئر معونة التي قتل بها سبعون من كبار الصحابة والحفاظ لكتاب الله تعالى يقال لهم القراء، فقد روى البخاري: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رِعْلًا، وَذَكْوَانَ، وَعُصَيَّةَ، وَبَنِي لَحْيَانَ اسْتَمَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَدُوٍّ، فَأَمَدَّهُمْ بِسَبْعِينَ مِنْ الْأَنْصَارِ كُنَّا

نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ فِي زَمَانِهِمْ، كَانُوا يَحْتَطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، حَتَّى كَانُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قَتَلُوهُمْ وَغَدَرُوا بِهِمْ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو فِي الصُّبْحِ عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ عَلَى رِعْلٍ، وَذَكْوَانَ، وَعُصَيَّةَ، وَبَنِي لَحْيَان.

كانت هذه الوقعة أهم الأسباب إلى جمع القرآن مكتوبًا، ودفعت الصحابة إلى هذا العمل، لَمَّا رأَوْا أن حفظ الكتاب لا تتم إلا به.

وجريمة العصر هذه، تستوجب على جميع المسلمين في جميع الأمصار أن يقنتوا في صلواتهم ومساجدهم، ويدعوا على هؤلاء القتلة المجرمين، وكل من كان سبباً في قتل هؤلاء الحفظة لكتاب الله، فلن يفلتوا من العقاب الأليم، وسينتقم الله من القتلة عاجلاً أم آجلاً: لأن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته.

اللهم الْعَن كل من كان سبباً في قتل هؤلاء الحفظة لكتابك، وانتقم منهم لعبادك المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها يا رب العالمين.

الفصل الثاني

مفاهيم ومحاذير

في الفهم والتفسير

استخلاف الإنسان في إعمار الكون والمجتمع

كرَّم الله الإنسانَ فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[الإسراء:70] وخلقه في أحسن صورة، وأحسن تقويم، وقد ورد التعبير في القرآن الكريم عن خلق الإنسان تارةً بقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[غافر:64، والتغابن:3]، وتارةً بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:4]. أي : أنّ اللّه سبحانه وتعالى جعل صورة الإنسان صورة حسنة، في جمال هيئة، وبديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه؛ ولذلك قالت الفلاسفة : إنه العالم الأصغر، لذلك خَلَقه الله تعالى في أحسن تقويم، والمقصود بالتقويم: أي جعل الإنسان ذا قوام، وقوام الشيء هو ما يقوم به الشيء ويثبت، فتريد الآيات أن تبيّن أن صورة الإنسان صورة حسنة بشكل عامّ، وأنّ هذا النوع من الخلق يمتلك أحسن قوام بحسب الخلقة، وليس المقصود بالصورة الحسنة صباحة الوجه والمنظر وملاحته؛ إذ البشر يتفاوتون في ذلك، بل المقصود تناسب أجزاء الإنسان بعضها مع بعض، في أحسن تقويم سواء في تكوين جثمانه البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب، وفي ذلك فضل عناية بهذا المخلوق.

هذا المخلوق العجيب سخر الله تعالى له الكون كله، وسخر ما فيها لمنفعته وتمكينه من دوره الذي خلقه من أجله، حيث سخر له ما هو أكبر منه خلقاً كالسماوات والأرض، وأعظم منه جسماً كالأنعام، وغير هذا كثير ومختلف، وإن كل ما أوجد في هذا العالم فإنما أوجده لأجل الإنسان، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾[إبراهيم:32].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:13].

وإذا كان الله قد سخر هذا الكون للإنسان، فإن على الإنسان أن يقف منه موقفاً إيجابياً، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: 73].

وأعلن الله تعالى أمام ملائكته أن الإنسان خليفة له منذ بداية الوجود الإنساني على الأرض؛ لأنه يملك بعضاً من روحه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:30].

إذن العلاقة وثيقة بين الله تعالى والإنسان، على عكس النظرية الغربية التي ترى الإنسان في نطاق الطبيعة فقط، لا علاقة له بالله ولا بعالم ما وراء الطبيعة.

ولما كانت إرادة الله تعالى كاملة ومطلقة؛ والإنسان خليفته في الأرض؛ كانت إرادة الإنسان قاصرة، لأنها إرادة محكومة بإرادة الله تعالى، لذا كانت مساحة الإرادة تتوازن مع مساحة المسئولية، وهي مسئولية مفروضة لا يستطيع الإنسان الفكاك منها، وسيحاسب على إساءة تفعيل المسئولية كما سيثاب على حسن استخدامها، وليست هناك خطيئة موروثة، بل كل فرد مسئول عن أعماله مسئولية تامة، لأنه حر وعاقل.

وحتى يتمكن الإنسان من إنجاز مهمة الخلافة فقد زوَّده الله تعالى بآليات عدة تساعده فى تأكيد إرادته، وتدعم قدرته على بناء العمران، أهمها: العقيدة والعقل والعلم، فأما العقيدة

فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف:96].

لأن الإيمان والعقيدة تدفعان الإنسان إلى عمران الأرض والارتقاء بالمجتمع كما أمر الله تعالى.

وأما العقل فهو الذي خاطب الله تعالى الإنسان بشأنه كوسيلة لتعميق إيمانه وعقيدته، لأن العقل وسيلة تفكرية تفتح أمامه الآفاق ليرتقي بأوضاع المجتمع، والآيات في هذا الشأن كثيرة تدعو تارة إلى تأمل الكون المحيط بنا حتى نزداد إيماناً بقدرة الله وعظمته، إضافة إلى أن الارتقاء بأوضاع العقل يساعدنا على استكشاف أفضل السبل للارتقاء بحالة العمران فى المجتمع، وتارة تحدثنا عن العلم وأن الله يحترم العلماء ويرفعهم درجات، لأن العلم والمعرفة يساعدان على كشف طبقات الواقع أو كشف طبقات المعاني في كلام الله وآياته، ولذلك زود الله الإنسان بما يكفل له القيام بهذه المهمة، وفي مقدمة ذلك العلم الذي لم يمنح لمخلوقات غيره كالملائكة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 31-33].

ولقد جاء ذكر الاستخلاف في القرآن الكريم مقروناً بالأرض أكثر من مرة، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الاَرْضِ كَمَا اَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[النور:53]، ومعنى الاستخلاف في الأرض: إمكان التصرف والتوطن فيها.

وتكرار ورود الاستخلاف مقروناً بالأرض يشير إلى أن الاستخلاف مقرُّه في الأرض، بما فيها من مكونات طبيعية تلائم القيام لحياة إنسانية فوقها، أي أن نجاح الإنسان بمهمة

الاستخلاف متوقف على حسن تدبيره لما في الأرض وعليها من مكونات، وأن هذا الاستخلاف مؤقت لارتباطه بالأرض أي: ينتهي بانتهائها.

وإذا كان الاستخلاف مجرد نيابة عن المالك للتصرف في ملكه بقصد الإصلاح، فإن من حق المالك المستخلِف أن يبدل المستخلَفين إذا ما أخلوا بشروط الاستخلاف: وهذا ما أكده الباري جل جلاله حينما قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ اَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[هود: 56].

وقال أيضاً: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾[الأنعام: 134].

فهو استخلاف مؤقت تتعاقب عليه الأجيال وفق سنن إلهية محكمة ومنضبطة، وفي مقدمة هذه الشروط استيفاء شرطَيْ: الإيمان والعمل الصالح، قال الله تعالى عن الشرط الأول وهو "الإيمان": ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾[النور:55] وقال عن الشرط الثاني وهو "العمل الصالح": ﴿ءامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد: 7] الإنفاق مما استخلف فيه.

أما من أفسد في ما استخلف فيه، فإن الله يأتي بمن يستخلفه ويُصلِح ما أفسَدَه، وقد استعمل القرآن الكريم لهذا المعنى أحياناً لفظ التوريث، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الاَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الانبياء:104] فبمقتضى هذا القانون أورث الله أقواماً صالحين أرض أقوام مفسدين، وتلك سنة كونية لا تتخلف، قص علينا القرآن الكريم بعض فصولها:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ، بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف: 136- 137].

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾[الاحزاب: 27].

الخلافة والاستخلاف مهما طال أمدهما فهما إلى زوال، ولذلك وجب العمل بمقتضيات هذا الاستخلاف: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ ءالاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: 73].

ويفهم من هذا التحذير أن أهم خطر يتهدد حياة الإنسان في الأرض التي استُخلِف فيها هو الفساد، ولذلك لم يكن عبثاً قول الملائكة لرب العزة حين أعلمهم باستخلافه الإنسان في الأرض: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾[البقرة:29].

وأخيراً: يرى مؤسس عالم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون: أن الله قد خلق البشر ليتعاونوا في إعمار الكون، فيقول: " فلا بدّ في ذلك كلّه من التّعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التّعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتمّ حياته لما ركّبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضا دفاع عن نفسه لفقدان السّلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر وإذا كان التّعاون حصل له القوت للغذاء والسّلاح للمدافعة وتمّت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فإذن هذا الاجتماع ضروريّ للنّوع

الإنسانيّ وإلّا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إيّاهم وهذا هو معنى العمران"[1].

1- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المشهور بمقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت 1988م: 55.

التعايش مع الآخر

مصطلح التعايُش مشتَقٌّ مِن الفعل تعايَشوا؛ أي: عاشوا على الأُلْفة والمودَّة، ومنه التعايُش السلمي، وعايَشَهُ: عاش معه، والعيش معناه: الحياة، وما تكون به الحياة منَ المطعم والمشرب والدَّخل. [المعجم الوسيط].

والصورة المثلى للتعايُش هي صورة دولة المدينة، التي كان اليهودي والنصراني يعيشان فيها بأمان إلى جنب المسلم في كَنَف الدولة الإسلامية، وكان الحبشي والرومي والفارسي يَتَمَتَّعون فيها بكلِّ حقوق المواطَنة؛ كالعربي تمامًا.

لقد اقتَضَتْ سنَّة الله جلَّ جلالُه في الكون أنَّ الناس مختلفون في ألوانهم، وألسنتهم، ومعتقداتهم، وأديانهم؛ مصداقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[الروم:22]، كما اقتضتْ قدرته جل جلاله على عدم رفْع الاختلاف وإزالته بين البشر؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود:118-119].

فوُقوع الاختلاف بين الناس أمرٌ ضروري لا بد منه؛ لتفاوت أغراضهم وأفهامهم وقُوى إدراكهم؛ ولكن المذموم بغي بعضِهم على بعض وعدوانه بما يؤدي إلى التدابر والتباغض.

فعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أعان قومه على ظلم فهو كالبعير المتردي ينزع بذنبه) [رواه أحمد في المسند].

ومعناه أنه قد وقع في الإثم وهلك كالبعير إذا تردى في بئر فصار ينزع بذنبه ولا يقدر على الخلاص.

والإسلام يقرر مبدأ المساواة المطلَقة بين الناس، وردهم إلى أصلٍ واحدٍ؛ لأن ربَّهم واحد، وأباهم واحد، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[الحجرات:13].

وقال صلى الله عليه وسلم: «يا أيُّها الناس، إنَّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كُلُّكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربيٍّ على أعجمي، ولا أعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا أبيض على أحمر فضل؛ إلَّا بالتَّقوى» [أخرجه الترمذي].

وهذا مما يملي علينا عدم ازدراء الآخرين، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم، وهو مما يحدو بنا نحو معاملةٍ أسمى مع الآخرينَ، دون نظر إلى النَّفْس بزهوٍ وافتخار، وإلى الآخرين بازدراء واحتقار.

فالتعايُش واقع وهذا مما لا ينكره أحدٌ يعرف واقع الناس وطبيعة حياتهم، ولقد تفاعَل النبي صلى الله عليه وسلم مع المجتمع المدني بِرُمَّته، بمَن فيه منَ اليهود والكفَّار والمنافقينَ.

والتعايش دافع فِطري في النَّفس، وذلك لأنَّ الإنسان مدنيٌّ بِطَبْعة كما يقول ابن خلدون، يكره العُزلة، ويميل إلى الخُلْطَة، ولا يمكن لإنسان سويٍّ أبدًا أن تطيبَ له الحياة وحده دون أن يألفَ الناسَ ويألفونه؛ ولذا أَمَرَنا الشرعُ بإلقاء السلام على مَن عرفنا، ومَن لم نعرف، وأَمَرَنا بصلاة الجماعة والجمعة، والاجتماع على عرفة في يوم واحدٍ في مكان واحد، ونهانا عن التَّدابُر والفرقة، وحَذَّر من تعاطي أسبابها.

والغرب جُزء من أمة الدَّعوة: فلقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الغرب والشرق؛ ولهذا شاع في المصطلحات الإسلامية تعابير: (أمة الدعوة)، و(أمة الإجابة)، فأمة الدعوة هي العالَم بأسره، وأمة الإجابة هم مَن آمن به صلى الله عليه وسلم، واتَّبع النور الذي أنزل معه، وللغرب في هذه المنظومة منَ الخصوصية ما ليس لغيرهم من بقيَّة هذه الأمة، فجُذُورهم ترجع

في الجملة إلى أهل الكتاب، ولأهْل الكتاب منَ الخصوصية ما ليس لغيرهم، فقدْ أباحتِ الشريعةُ طعامهم، وأحلتْ نكاح نسائِهم، بما لم تجزه مع فئة أخرى من غير المسلمين، وعقدتْ لأهل الكتاب الأمان في مجتمعاتها، وأعْطَتْهم على ذلك ذمَّة الله ورسوله، وللنصارى منهم اعتبار أخص، ورد ذِكْره في كتاب الله عزَّ وجل عندما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[المائدة:82].

كما أن البر والقسط هو أساس العلاقة في التعامُل مع المسالِم من غير المسلمين، وبرهان ذلك قول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:8]، والبرُّ هو أعلى درجات حسن الخُلُق، ومنه بر الإنسان لأمِّه وأبيه، وقد ندبتْ إليه الآية الكريمة في التعامُل مع المسالمين من غير المسلمين، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[النساء:90].

إلا أن الثوابتُ لا تخضع للمساوَمة أو التنازُل، وأمَّا المتغيرات، فإنَّ للمرء أن يعيدَ النظر فيها، في ضَوْءِ ما يستجدُّ في واقعِه وزمانه ومكانه مِن أوضاع فكريَّة، أو اجتماعيَّة، أو سياسيَّة، أو ثقافيَّة، وذلك بُغية ترجيح ما يتناسب مع زمانه ومكانه وواقعه.

وبناء على هذا يمكن الرد على من يصفون التعايش المشروع بالتمييع للدين، بأن: التمييع وأخذ المواقف الوسطية، أو إمساك العصا من المنتصف _كما يقولون_ لا مدخل له في ثوابت الدين، وأن التعايش لا يستلزم هذه التهمة، بل التعايش هو جوهر الدين ولُبُّه، إذ لو لم يكن ثَمّ تعايش بين الأديان والأفكار لما تمكن أحد من المسلمين أن يوصل الإسلام إلى غير المسلمين، ولا أن يوصل الحق إلى أهل الباطل.

ومن ضوابط التعايُش مع الآخر:

1- صِدْق النِّية في التعايُش والمودَّة في حُدُود الشرع، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾[آل عمران:119]، والمقصود بهذه الآية اليهود على رأيِ أكثر المفسِّرين، والمنافقون على رأي بعضهم.

2-الاعتراف بالآخر، والاستماع إلى ما عنده، وعدم رده جملة دون فَحْص، فردُّ ذلك مما يُنبئ عن عقليَّة غير واعية لمقاصد الشرع وأحكامه؛ فإن الاستماع إلى الحقِّ، والأخْذ به واجبٌ أين وُجد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بِحِفْظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يَحْثو منَ الطعام، فأخذته فقلتُ: لأرفعنَّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – فذكر الحديث – فقال: "إذا أويتَ إلى فراشِكَ فاقْرأ آية الكرسي، لن يزال عليك منَ الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبحَ"، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «صَدَقك وهو كذوب، ذاك شيطان» [رواه البخاري] فقد أصغى أبو هريرة لحديث الشيطان ما دام في الحق.

3-النظر إلى المقاصد والمآلات عند التعايُش: لقد كان فقهاؤُنا – فيما مضى – يَتَحَدَّثون عن حُرْمة السفر بالمصحف إلى ديار الكفَّار، وكانوا مصيبينَ في ذلك غاية الإصابة في ظل السياقات التاريخية والسياسية السائدة يومئذٍ، واليوم نفس هؤلاءِ الفقهاء يتنافسونَ في حثِّ الأمة على طباعة المصاحف، وترجمة معانيها، ونقلها إلى هذه البلاد، ويعتبرونها قُربة من أَجَلِّ القُرُبات، وهم اليوم مُصيبونَ في ذلك أيضًا غاية الإصابة؛ لتَغَيُّر الفتوى بتغيُّر الزمان والمكان والظروف والأحوال.

إن التعايُش بين المختلفينَ يشمل الجانب الفكريَّ، والاجتماعيَّ، والسياسيَّ، والاقتصاديَّ، والتربويَّ، وغير ذلك.

–أمَّا التعايُش الفكري، فسنجد آيات كثيرةً منَ القرآن الكريم تدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء؛ ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:64].

–التعايش الاقتصادي، قال الله تعالى واصفًا أهل الذِّمَّة والأمان من أهل الكتاب، وحاثًّا على التعامُل مع المؤتَمَنينَ من أهل الكتاب، ومحذِّرًا ممن لا أمانة لهم منهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:75].

وما عُرِف عنه صلى الله عليه وسلم منَ المعامَلات الماليَّة – بيعًا وشراءً، ودينًا ورهنًا – مع أهل الكتاب في المدينة المنوَّرة خيرُ شاهدٍ على ذلك.

–وأما التعايُش السياسي، فقد دلَّنا القرآن الكريم على صُور التعاوُن الإيجابيِّ مع الذين لا يقاتلون المسلمين، ولا يعتدون عليهم؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:8].

ويُؤَكِّد النبي صلى الله عليه وسلم تعايشه سياسيًّا بالمراسَلات والمخاطَبات، التي كانتْ تتمُّ بينه وبين سادة القبائل والأمم والشعوب، ورسائله إلى الملوك والأمراء آكدُ تعبيرٍ عنِ الرغبة الصادقة في التواصُل مع الآخر.

-وأمَّا التعايُش الثقافي والتربوي، فإنَّ القرآن الكريم، قد أرْسَى قواعده وأُسُسه مِن خلال جُمْلة حسنة منَ الآيات الكريمات.

أمَّا الجانب التربوي، فيُمَثِّله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:13].

وأمَّا الجانب الثقافي، فقد حَثَّ النبي صلى الله عليه وسلم بعضَ أصحابه؛ كالصحابي الجليل حُذَيْفة بن اليمان رضي الله عنه على تعلُّم العبرانيَّة وسواها، وكذلك أقرَّ الحبشة وهم يلعبون في المسجد على التعبير عن ثقافتهم في رحاب مسجده، وترْكه صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة تنظُر إليهم، حتى مَلَّتْ.

إنزال القرآن على واقع الأمة

نحن أُمَّة من طراز خاصّ، الله أخرجها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾[آل عمران:110]، ولم يقُل "خَرجت للناس" ولكن قال ﴿أُخْرِجَتْ﴾ فهناك مَن أخرجها ولم تَخرج لذاتها، ثم إنها أُخرجَت للناس، فهي بطبيعتها إذن أُمَّة الدعوة. لذلك رأى بعض علماء الاجتماع المسلمين أنه ينبغي أن يضاف في تعريف المسلم أنه داعية.

وكتاب الله تعالى هو الروح، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾[الشورى:52]، والرُّوح هنا هي التعبير عن سرّ الوحي المشعِر بأنه يُحدِثُ في الإنسان من الخصائص، ما تُحدِثه الرُّوح حين تُنفَخ في الإنسان لتُصَيِّرَه خَلقًا آخَر، فإن الإنسان يُجمَع خَلقُه في بطن أُمِّه أربعين يومًا نُطْفةً، ثم يكون علَقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَل إليه الملَك فتُنفَخ فيه الرُّوحَ، فيصير بذلك خَلقًا آخَرَ غيرَ الخلق الأوَّل، و الإنسان يصير بالقرآن خَلقًا آخر، لكون هذا القرآن ذا طبيعة تشبه طبيعة الرُّوح تمامًا.

ولذلك ينبغي إنزال آيات القرآن على واقع الأمة وقضاياها، لتحيا حياة سعيدة، ونعني بذلك أن القرآن الكريم لم ينزل لزمان معين ولا لمكان معين، بل نزل صالحاً للعمل به وتطبيقه في كل زمان ومكان، وهو لا يفهم حياً غضاً طرياً إلا بإنزاله على واقع الأمة وقضاياها، فلكل زمان منافقوه، ولكل مكان فراعنته وظالموه، لذا كان من الخطأ والزلل إنزال القرآن على غير منازله، فمن أنزل آيات المؤمنين على الكافرين أو العكس، أو جعل المؤمنين الصالحين منافقين وكافرين؛ فقد ضل سواء السبيل.

وخصيصة إنزال القرآن على الواقع هذه؛ تفرَّد بها طائفة من العلماء دون عامة أهل العلم، قال الله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلاَفاً كَثِيراً. وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنْهُمْ

لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء:82-83] أي: استنباطات أهل التأمل من العلماء بالقرآن ووقائع الأمور من الأمن أو الخوف.

أما حين يتصدَّر للحكم على الوقائع أهل الأهواء يحصل عند ذلك الخلط والجهل، ومن تأمل تاريخ المسلمين رأى عامة أهل البدع على غير هدى، كالخوارج الذين نزَّلوا آيات الكفار على المؤمنين، وكالرافضة في التلاعب بآيات القرآن وتقسيمها بأهوائهم بين أهل البيت وبقية الصحابة.

ولعل واقع المسلمين اليوم وما هم فيه من وضع لا يحسدون عليه، ما يشير إلى أن السبب من وراء ذلك كله هو الجهل بمنهج التدبر، والخطأ في ربطها بالواقع.

إننا كثيراً ما نقرأ القرآن الكريم ونغفل عن ربطه بواقع حياتنا، ونفصل بينه وبين أعمالنا، وننسى تطبيقه على أحوالنا، وتبعاً لذلك فقد وجد في المسلمين من يقرأ القرآن طلباً لبركته فقط دون أن يفهم معانيه، ووجد من يقرؤه هذًّاً بلسانه، ولا يعقل سوى مبانيه، وأسوأ منه من يقرؤه على أنه ماض انتهى، وحكايات تتلى لا علاقة لها بواقعه وأحواله.

لقد عني أهل العلم قديماً وحديثاً بتدبر القرآن العظيم وتأمل آياته، والوقوف عند أحكامه وتوجيهاته، واستنباط العلاقة بين الواقع وحكمه وهداياته، وكان من أئمتنا علماء أعلام وكرام، يعيشون حياتهم بالقرآن ومع القرآن فقهاً وفهماً، وتدبراً وعلماً، وتطبيقاً وعملاً.

فخطاب القرآن عام لمن بلغه، ومتناول لمن أتى بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك لما ولي ابن العربي القضاء، أجرى أحكامه على أصول الشريعة، والسنن المرعية، وناهض الجهال، والأغمار، وقضاة الجور، ومن صنائعه المحمودة في هذا الباب: أنه أحيى سنة ثابتة كاد أن يندثر رسمها في الأندلس، وهي بعث الحَكمين إلى الزوجين المتخاصمين، فلما

وقف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء:35] قال:

"وهي من الآيات الأصول في الشريعة، ولم نجد لها في بلادنا أثراً، بل ليتهم يرسلون إلى الأمينة[1] فلا بكتاب الله ائتمروا، ولا بالأقيسة احتَذوا، وقد ندبت إلى ذلك فما أجابني إلى بعث الحَكمين عند الشقاق إلا قاضٍ واحد، ولا إلى القضاء باليمين مع الشاهد إلا قاضٍ آخر، فلما ولّاني الله الأمر أجريتُ السنة كما ينبغي، وأرسلتُ الحَكمين، وقمتُ في مسائل الشريعة كما علمني الله سبحانه من الحكمة والأدب لأهل بلدنا لما غمرهم من الجهالة"[2].

ففي هذا الموضع قارن الإمام ابن العربي بين واقعه وبين الحكم الشرعي المنصوص عليه في الآية، وبيَّن مخالفة قضاة عصره لهذا التوجيه القرآني الكريم، ومن ثَمَّ ذكر تطبيقه للحكم في عصره.

وذكر أبو حيان في البحر المحيط عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:142] ما يلي:

"أي متوانين لا نشاط لهم فيها؛ لأنهم إنما يصلُّون تستراً وتكلفاً، وينبغي للمؤمن أن يتحرز من هذه الخصلة التي ذُمّ بها المنافقون، وأن يقبل إلى صلاته بنشاط وفراغ قلب وتمهل في فعلها ولا يتقاعس عنها فعْلَ المنافق الذي يصلي على كره لا عن طيب نفس ورغبة، ومازال

1- أي: يجعلان على يدي أمين (كما قال القرطبي في تفسيره): 117/5.

2- أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة 1424هـ 2003م:537/1.

في كل عصر منافقون يتسترون بالإسلام ويحضرون الصلوات كالمتفلسفين الموجودين في عصرنا هذا"[1].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53] قال ابن القيم :

"فمن تدبر هذه الآيات ونزَّلها على الواقع تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان"[2].

ومن جميل تدبر القرآن الكريم، حينما يقرأ كثير من الناس قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الشورى:38]، يكاد ينصرف ذهنه كلياً إلى المجال العسكري والسياسي فقط، بينما الشورى أسلوب حياة، فينبغي أن تمارسه الأسرة في البيوت، والعمال في عملهم، بل يستخدم في كل مجال الحياة.

وأخيراً: جميل أن نحفظ القرآن، وأن نتعلم مخارج حروف القرآن، وتجويده وتحسينه، ولكن تطبيق القرآن هو الهدف الأسمى من إنزال القرآن، وبذلك تُنفَخ في هذه الأُمَّة روحُ القرآن، وإذا نُفِخَ فيها من رُوحه ظهرت فيها أمارات الحياة، ومن أماراتها إحساس بعضها ببعض إحساسًا سليمًا، فإذا اشتكى منها مصرٌ أو قُطْرٌ، تَداعى له سائرُ الأمصار والأقطار بالعون والنُّصرة والتأييد، ولم يقُل قائل منهم: ما لنا ولسورية؟! ما لنا ولليمن؟! ما لنا ولليبيا؟! إن رُوح القرآن إذا نُفخَت في الأُمَّة أثمر فيها كلّ تلك الوظائف والأحاسيس.

1- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، الطبعة الثانية 1403 هـ: 393/3.

2- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية: 233/3.

فهم الواقع بالسنن الإلهية

إن الناظر إلى الأحداث الجسيمة والنوازل العظيمة التي أحاطت اليوم بالعالم عامة وبالأمة الإسلامية خاصة لا يستغرب حدوثها ولا يفاجأ بها حينما يرجع إلى كتاب ربه وينطلق من توجيهاته في ضوء سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابي فردا على حساب فرد، ولا مجتمعا على حساب مجتمع آخر ؛ فالنتائج التي قد يتطلع إليها على وجه الأرض أكثر المؤمنين إيمانا وأشدهم ورعاً وتقوى سوف يجنيها أكثر الكافرين كفراً وأشدهم فسقاً وفجوراً وعتواً إذا وافق السنن التي قد حددها ربنا لتسير الأمور على وفاقها: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:49].

ومرجع ذلك أن السنن الربانية في الحياة البشرية دقيقة كل الدقة، صارمة منتظمة أشد الانتظام، لا تحيد ولا تميل، ولا تحابي ولا تجامل، ولا تتأثر بالأماني وإنما بالأعمال، وهي في دقتها وانتظامها وجديتها كالسنن الكونية سواء بسواء، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[فصلت:53].

وما أصاب الأمة الإسلامية اليوم من غثائية فأصبحت كالقصعة المستباحة إلا بسبب جهل أبنائها بالسنن الإلهية التي تحكم حياة الأفراد والأمم والشعوب، وفق المنهج الذي قرره العليم الخبير: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك:14]، فالذي يطلب الأسباب ليخرج من ظلمات هذا التيه على غير بصيرة لا يزيد إلا بعداً، ولن يفهم التاريخ، فيعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والبقاء والتمكين، وعوامل الهدم والخوف والتدمير والاستبدال إلا بمعرفة سنن الله عز وجل.

والمقصود بالسنن الإلهية: هي القوانين الحاكمة قدراً في العباد التي تجري باطراد وثبات وعموم، في حياة البشر.

فلله في الأفراد سنن، وفي الأمم سنن، وفي المسلمين سنن، وفي الكافرين سنن. والسنن تعمل مجتمعه ولا تتخلف أو تتبدل، يخضع لها البشر في تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، ويترتب على ذلك من نتائج كالنصر أو الهزيمة، والسعادة أو الشقاوة، والعز أو الذل، والرقي أو التخلف، والقوة أو الضعف، وفق مقادير ثابتة لا تقبل التخلف ولا تتعرض للتبديل: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[فاطر: 43].

لنتعرف على هذا المعنى من أحسن حديث وأبين بيان ؛ كتاب ربنا، فالله سبحانه وتعالى عندما أراد من عباده أن يفقهوا سننه الإلهية بين لهم منها ما تتحقق به الهداية لهم، فقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[النساء: 26].

ولقد وردت لفظة سنة الله أوسنتنا في القرآن الكريم في مواضع عدة منها، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[فاطر: 82-85].

تدعو هذه الآيات كل معرض معاند إلى السير والنظر في عاقبة الذين كانوا من قبلهم، وقد كانوا أكثر منهم وأشد قوة وعمارة للأرض، ومع ذلك لم يغن عنهم ذلك شيئاً ؛ ذلك أنهم ما آمنوا برسلهم الذين أتوا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، بل فرحوا بما عندهم من العلم

فأحاط بهم شؤم ما كانوا به يستهزئون، فعندما عاينوا وقوع العذاب بهم قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم تكن لتقبل توبتهم ولا لتقال عثرتهم ؛ لأنها سنة الله التي مضت في عباده، وحكمه في جميع من تاب بعد معاينة العذاب أنه لا تقبل توبته: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:85].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا. سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا﴾[الفتح:22-23].

فهذا البشارة من الله تعالى لأهل الإيمان بالنصر والتمكين على الكفار في كل زمان ومكان ما تمسك أهل الإيمان بإيمانهم فالله ناصرهم وهو مولاهم، والكفار لا ناصر لهم ولا ولي كما قالها النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قولوا الله مولانا ولا مولى لكم، وكذلك مضت سنة الله في كفار الأمم السالفة مع مؤمنيها، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تغييرًا.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا. اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا﴾[فاطر: 42-43].

"كانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل، فلما جاءهم ما تمنوه وهو النذير من أنفسهم، نفروا عنه ولم يؤمنوا به، عتواً عن الإيمان ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا﴾ أي أجرى الله العذاب على الكفار، ويجعل ذلك سنة فيهم، فهو يعذب بمثله من استحقه، لا يقدر أحد أن يبدل ذلك، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره" [تفسير القرطبي].

وقال جل جلاله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلا. سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا﴾ [الإسراء: 76-77].

وردت هذه الآية في سياق الحديث عن صورة من صور الصراع بين الحق والباطل، تنتقل من مجرد بغض الحق وكراهته إلى إظهار العداوة والمبارزة مع أصحاب الدعوة، فالباطل لا يرضى حتى بمجرد وجود الحق لأنه موقن أن في الحق قوة ذاتية متحركة غير ساكنة لا تقبل إلا الانتشار والتوسع والتأثير وكسب الأنصار والأتباع والتمكين والهيمنة له، وسنة الله انتصار الحق ولو بعد حين ولو دالت للباطل دولة يوما ما فإنها لا تدوم فسرعان ما ينجلي الباطل ويحل الحق وإن أخرجوا الدعاة من ديارهم وإن حبسوهم وإن قتلوهم فلن يحل الباطل محل الحق أبداً؛ سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

ولقد أصاب المسلمين القرحُ في غزوة أحد، وأصابهم القتل والهزيمة. أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير. قتل منهم سبعون صحابياً، وكسرت رباعية الرسول - صلى الله عليه وسلم -وشج وجهه، وأرهقه المشركون، وأثخن أصحابه بالجراح، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: 165].

وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر، حتى قال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟ وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟!

والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعاً في الحياة فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا

تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول.

والآيات من كتاب الله عز وجل في ذكر مثل هذه السنن كثيرة جداً غير محصورة فيما ذكرنا بلفظ السنن فقد ورد في القرآن من ذكر (أَيَّام اللّهِ)، قال الله تعالى عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[إبراهيم: 5].

"وأيام الله": وقائع الله في الأمم السالفة، والأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية"[1].

و﴿أَيَّام اللّهِ﴾ التي تفسر سنن الله ليست ماضية فقط، بل هي حاضرة أيضاً ومستقبلة؛ فكما جرت بشأن السنن أيام ووقائع في الماضي الغائب عنا؛ فهي تجري في الحاضر المحيط بنا والمستقبل البعيد منا.

ولما كان الكفار لا يؤمنون بكتاب ربنا بل لا يؤمنون بكثير من الغيب جعل الله لسننه شواهد مادية باقية، فنحن نشاهد آثار قرى عاد وثمود، وكيف أهلكهم الله تعالى، وبقيت معالمهم ومصانعهم عبرة حتى نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إتيانها، إلا أن يكونوا باكين معتبرين، يعرفون ما هذه السنة التي جرت على هؤلاء فيتجنبونها.

وكذلك جثة فرعون مصر التي تطوف العالم اليوم ليحق فيه قول الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[يونس:92].

1- تفسير القرطبي: 342/9.

والتاريخ يصدق هذه السنن التي جاءت في النصوص الشرعية، ولم تكن السنن لتجري على الكفار دون المؤمنين فانظر على سبيل المثال ما حلّ بالمسلمين في أواخر الدولة الإسلامية في الأندلس؟! كيف غيَّرَ المسلمون حالهم فغيَّرَ الله عز وجل حالهم؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:11] وهذه سنة الله في الأمم.

الأمل روح الأمة

ابتليت الأمة بنكبات كثيرة علي مر الدهور والأزمان حتى إلى يومنا هذا، وأشد أنواع النكبات التي قد تبتلي بها أمة أن يتسرب اليأس إلي القلوب وتتفرغ القلوب من الأمل، فما أحوجَنا إلى الأمل؟

من يدري؟ ربما كانت هذه المصائب بابًا إلى خير مجهول، ورب محنة في طيها منحة، أوليس قد قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: 216) وقال سبحانه: ﴿ .... فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 19].

الأمل: هو توقع حدوث شيء طيب في المستقبل مستبعد حصوله، وانشراح النفس في وقت الضيق والأزمات، وهو عبادة الوقت.

الأمل للأمة كالروح للجسد: فلولا الأمل ما بنى بان، ولا غرس غارس، ولولا الأمل لما تحققت كل الإنجازات التي وصلت إليها البشرية، وذلك لأن المخترع لم يتمكن غالبا من تحقيق انجازه من أول مرة، فأديسون بعدما أخطأ 999 مرة نجح في صنع أول مصباح كهربائي.

وإلا فما يدفع الزارع إلى الكد والعرق ويرمي بحبات البذور في الطين؟ إنه أمله في الحصاد وجني الثمار.

وما الذي يغري التاجر بالأسفار والمخاطر ومفارقة الأهل والأوطان؟ إنه الأمل في الربح.

وما الذي يدفع الطالب إلى الجد والمثابرة والسهر والمذاكرة؟ إنه أمله في النجاح.

وما الذي يحفز الجندي إلى الاستبسال في القتال والصبر على قسوة الحرب؟ إنه أمله في إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

وما الذي يجعل المريض يتجرع الدواء المرّ، وربما في ببعض الأحيان أن يقطع من جسده في عملية جراحية؟ إنه أمله في العافية.

وما الدافع الذي يجعل المؤمن يسلك سلوكاً تكرهه نفسه وبه يخالف هواه ويطيع ربه؟ إنه أمله في مرضاة خالقه والجنة.

فالأمل قوة دافعة تشرح الصدر وتبعث النشاط في الروح والبدن، واليأس يولد الإحباط فيؤدي إلي الفشل.

والأمل صفة الأنبياء عليهم السلام، فموسى عليه السلام: ولد بالأمل ويعيش بالأمل منذ كان رضيعاً في اليم: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: 7].

ويخرج مطارداً إلى مدين: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [القصص: 22].

وفي القرن العشرين وقعت حربان عالميتان وكانت الثانية منهما أشد من الأولى ودفع ثمن الثانية اليابان وألمانيا فضربت اليابان بالقنابل النووية وألمانيا تم شطرها إلى غربية وشرقية ودمرت البنية التحتية نهائياً، ولكن بالأمل أصبحت اليابان في خاتمة القرن العشرين من أقوى الدول اقتصادياً على مستوى العالم، وتوحدت ألمانيا وأصبحت من أولى الدول صناعياً واقتصادياً.

أما اليأس فتوأم الكفر لأنه سوء ظن بالله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

وحكم علي اليائسين بالبوار فقال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفتح: 12].

والقنوط صفة أهل الضلال، قال رب العزة سبحانه: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: 56].

فلا تقنطوا ولا تيأسوا فليس اليأس من أخلاق المسلمين، وحقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد، ولا زال في الوقت متسع، ولا زالت عناصر السلامة قوية عظيمة في نفوس شعوبنا المؤمنة رغم طغيان مظاهر الفساد، والضعيف لا يبقى ضعيفاً طوال حياته، والقوي لا تدوم قوته أبد الآبدين، قال الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: 5].

القرآن الكريم يخبرنا مَنْ سيكتشف البناء الكوني؟

عندما بدأ العلماء باكتشاف الكون أطلقوا عليه كلمة «فضاء»، وذلك لظنّهم بأن الكون مليء «بالفراغ»، ولكن بعدما استطاعوا رؤية بناء هندسي مُحكم بدقة مذهلة، إطلقوا عليه مصطلحاً جديداً هو «بناء»، ولقد استخدم القرآن الكريم هذا المصطلح فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: 22]، فسبحان الله! كلمة يستخدمها القرآن في القرن السابع الميلادي، ويأتي العلماء في القرن الحادي والعشرين ليستخدموها بحرفيتها بعدما تأكدوا بأن هذه الكلمة تعبِّر تعبيراً دقيقاً عن حقيقة الكون!..

ولما رأوا ما في هذا البناء من نجوم ومجرات وعلى هذا الحشد الضخم من المجرات رأوا ألواناً وزينة فشبهوها باللآلئ! ففي إحدى المقالات العلمية نجد كبار علماء الفلك في العالم يقولون:

"إن المادة في الكون تشكل نسيجاً كونياً، تتشكل فيه المجرات على طول الخيوط للمادة العادية والمادة المظلمة مثل اللآلئ على العقد."

وتأمُّل ما بين هذه (اللآلئ) كما يرونها هم وبين (الزينة) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: 6]. والفروج في اللغة هي الشقوق.

وقد يتساءل بعضهم: إذا كانت هذه الحقائق العلمية والكونية موجودة في القرآن منذ 1400 سنة، فلماذا تنتظرون الغرب حتى يكتشفها ثم تقولون إن القرآن قد سبقهم للحديث عنها؟

والجواب في الآيات ذاتها، لأن هذه الآيات موجهة أساساً للملحدين الذين لا يؤمنون بالقرآن، خاطبهم بها الله تعالى بأنهم هُمْ مَن سيرى هذه الحقائق الكونية، وهم من سيكتشفها..!

قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

هذه الآية الصريحة تخاطب أولئك الذين يشكّكون بالقرآن، وأن الله سيريهم (هم) آياته ومعجزاته حتى يدركوا ويستيقنوا أن هذا القرآن هو الحق، وأنه كتاب الله تعالى.

ومن الغريب والعجيب أن يردد علماء غربيّون مصطلحات موجودة في القرآن قبل مئات السنين! فهذا الدكتور «بول ميلر»، مكتشف النسيج الكوني وزملاؤه، يقولون بالحرف الواحد:

"إن المجرات الأولى، أو بالأحرى لبنات البناء الأولى من المجرات، سوف تتشكل في خيوط النسيج. وعندما تبدأ ببث الضوء، سوف تُرى وهي تحدّد مختلف الخيوط غير المرئية، وتشبه إلى حد كبير الخرز على العقد".

وفي المقالات الصادرة حديثاً نجد هؤلاء العلماء يطرحون سؤالاً يبدؤونه بالكلمة القرآنية نفسها: «كيف تشكَّلَ البناء الكوني؟» إنها كلمة «كيف» ولو قرأنا هذه المقالة نجد أنها تتحدث عن بنية الكون وهو ما تحدثت عنه الآية: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾! بل إن الله عزّ وجلّ قد أقسم بهذا البناء فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: 5]. والله تعالى لا يُقسم إلا بعظيم.

وتندهش أكثر حينما تجد أن العلماء التقطوا صوراً رائعة للنجوم شديدة اللمعان، وأدركوا أن هذه النجوم تضيء الطريق الذي يصل بيننا وبينها، ولذلك أطلقوا عليها اسماً جديداً وهو

«المصابيح»، وسبحان الله! إنه مصطلح القرآن، فقد قال الله تعالى عن النجوم التي تزين السماء: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: 12].

فأنى لبشرٍ أن يتنبَّأ بهذا؟! أليس القرآن الكريم هو كتاب الحقائق الكونية؟!

إذن اقرؤوا معي هذا البيان الإلهي المحكم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53].

آية تفسر سبب سقوط يبرود

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران:165.]

﴿أَوَلَمَّا﴾ الهمزة للإنكار، وجعلها ابنُ عطية للتقرير والتقريع، وتقديره: أقلتم حين أصابتكم مصيبة.

ومعنى: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا﴾ أن المشركين قتلوا من المسلمين – يوم أحُدٍ – سبعين، وقتل المسلمون منهم – يوم بدر – سبعين، وأسروا سبعينَ، والأسيرُ في حكم القتيلِ، لأن الآسر يقتل أسيره إن أراد.

و ﴿ أَنَّى هَذَا﴾ المراد بالإشارة المصيبة و" أنى " سؤالٌ عن الحال؛ لأن الاستفهام لم يقع عن المكان، ولا عن الزمان، إنما وقع عن الحال التي اقتضت لهم ذلك، سألوا عنها على سبيل التعجُّب، وجاء الجواب من حيث المعنى لا من حيثُ اللفظ، في قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي: هذا الانهزامُ إنما حصل بشؤم عصيانكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي الذي لا كفء له.

﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من النصر والخذلان ونصب أسباب كل منهما ﴿ قَدِيرٌ﴾.

والشاهد من الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ الذي خاطب به الصحابة الكرام خير أجيال المسلمين عَقِب ما نزل بهم في أُحُد.

ولقد سمعت أحد الخبراء الاستراتيجيين يقول محللاً ما حصل في يبرود :

(أهم سبب لذلك أنّ كل مجموعة في ميدان المعركة كانت . على الرغم من استحداث غرفة عمليّات عسكريّة واحدة مؤخّراً . عم تشتغل على هواها) على هواها؟!! نعم إنه الهوى المتبع!

لقد أوتينا من قبل أنفسنا، و"الهوى المتّبع" هو ما عبّر عنه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وقصد بذلك التصلّب بالرأي، وإقصاء الآخر، وهذا ما وقع فيه ثوارنا المجاهدون.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ "الأنانية" والفرديّة والحزبيّة، وانتفاخ الذات، أمراض يجب استئصالها من عقولنا حتى يُنزل الله سبحانه وتعالى نصره علينا، فهل سنفعل؟

لا تشتم إلهاً لا تعبده ..!

كُتبت على لوح فخارٍ يعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد في أوغاريت السورية عبارة: (لا تحتقر إلهاً لا تعبده).

وكُتبت على أحد المعابد في تدمر السورية أيضاً باللغة الآرامية التدمرية عبارة: (لا تشتم إلهاً لا تعبده) قبل ألفين وخمسمائة عام تقريباً.

ونحن إن تأملنا هاتين العبارتين نستنبط ما يلي:

لقد أدرك الفكر الإنساني في تلك الحقبة حريّة المعتقد، وفي ذلك بذرة إسلامية بطريقة ما إن قصدنا أن الدين هو حرية العلاقة مع الغيبيات.

وفي العبارتين أيضاً تقاطعٌ واضح مع (المادة 18) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان حيث تنص حرفياً أن لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين.

بل ينهى الله تعالى رسولَه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو .

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: 108].

لا تعجب أخي الكريم فإن القرآن الكريم لا يكتفي بذلك بل إنه يأمرنا بالبر والقسط مع الوثنيين الذين يعبدون الأحجار!

يقول الله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:8].

وإذا دققنا في الآية الكريمة نجدها لم تقل: أن تبروهم وتقسطوا (فيهم)..! بل قال: ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ والمعنى أشد رحمة ووداً وتواصلاً.

علاوة على ذلك فإن المسلم يثاب على إحسانه إلى هؤلاء، وله على ذلك أجر وثواب، فقد ذكر الله تعالى من صفات الأبرار الذين هم أهل الجنة : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:8] والأسير لا يكون إلا كافراً.

وفي تراثنا الإسلامي شيء كثير من هذا، مثال ذلك ما قاله الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه "المجموع":

"فلو تصدق على فاسق أو على كافر من يهودي أو نصراني أو مجوسي جاز، وكان فيه أجر في الجملة. قال صاحب البيان: قال الصيمري: وكذلك الحربي، ودليل المسألة: قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ ومعلوم أن الأسير حربي"[1].

فماذا لو كان خطابنا الإسلامي للعالم أجمع بهذا المستوى من التراحم والبر والقسط ؟

ثم علينا أن نعلم أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[يونس:99].

أخي المسلم: إن احتقارنا لعقيدة الآخرين تلميحاً أو صراحةً هو شتيمة مباشرة تصنع من الآخر عدواً لدوداً، فيصبح كقطةٍ محاصرة تتهيأ للدفاع عن وجودها.

فلماذا لا نكتفي بمحاسبة أنفسنا؛ ونحترم اعتقاد الناس؛ وندع الخَلْقَ للخالِق؟

1- المجموع، للنووي:237/6.

وهذا ما يريده الباري جل جلاله منا حينما يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[الحج:17].

يخبرنا الباري تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين، واختلاف الناس فيهم - والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تبارك وتعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تكن ضمائرهم.

طبعاً كل هذا الذي نقوله في الاعتقادات، أما في السياسة فلا شك أن من حقنا الدفاع عن أنفسنا إن اعتدي علينا، كما لنا أن نكرهَ ونقاتلَ من يقاتلُنا، قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:190].

وقوله : ﴿وَلا تَعْتَدُوا﴾ أي لا تبدؤوهم بالقتال، فإن بدؤوكم هم فقاتلوهم.

لا تغلو في دينكم غير الحق

حذَّر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أمَّتَه من الغلو فيه والتجاوزِ في إطرائِه ومدحِه؛ ففي صحيح البخاريِّ من حديث عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تُطرُوني كما أطرَتِ النصارى ابنَ مريمَ؛ فإنما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه) [رواه البخاري].

والإطراء: هو المدحُ بالباطل، ومجاوزة الحدِّ في المدح؛ ذكَره ابن الأثير.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فراجَعه في بعض الكلام، فقال: ما شاء اللهُ وشئتَ! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (أجعلتَني لله ندًّا؟! بل ما شاء اللهُ وحده) [رواه الإمام أحمدُ].

القصدُ في كل شيء حسَنٌ، وما بُولغ في شيء إلا وقع فيه الكذب، وهذه آفةٌ مزمنةٌ تجدها عند الغلاة، تارةً عن جهل، وتارةً عن هوى!

وقد جرَّت المبالغة قومًا إلى تعظيم شيوخهم بالكذب، فنسبوا إليهم من الكرامات ما ليس له أصلٌ، وربما أحاله العقلُ، مع أن الحق لا يحتاج إلى تشييدٍ بباطل!

وقد تعلمت من خلال دراستي أن حبي لشيوخي لا يدفعني إلى الكذبِ عليهم، تعظيمًا لأمرهم، فالوِفاق لا يعني النِّفاق، والحقَّ أحقُّ أن يتّبع..!

ولقد ذكر الإمامُ الذهبي في ترجمة الإمام المبجل أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ولذِكره جلالةٌ في النفوس، ومهابةٌ في القلوب، قال:

"عن ابن أبي حاتم، حدثني أبو بكر محمد بن عباس المكي، سمعت الوركاني – جار أحمد بن حنبل – قال:

(يوم مات أحمدُ بن حنبل وقع المأتم والنَّوح في أربعة أصناف: المسلمين، واليهود، والنصارى، والمجوس، وأسلم يوم مات عشرون ألفًا! وفي رواية: عشرةُ آلاف من اليهود والنصارى والمجوس)!

وهذه منقَبةٌ عظيمةٌ يفرح بمثلها كل حنبلي — والإمام الذهبي معدودٌ من كبارهم - ولكن منطق العلم مقدَّمٌ على منطق الهوى، ولا يُكذَب على الإمام بمثل هذا، وقد أغناه الله عنه بما هو خيرٌ منه، مما هو مبثوثٌ وثابتٌ في سيرته العظيمة!

لقد عقَّب الحافظ الذهبي رحمه الله على تلك الحكاية كعادته بما يقتضيه منطقُ العلم، قائلًا:

(هذه حكايةٌ منكَرةٌ، تفرد بنقلها هذا المكي عن هذا الوركاني، ولا يعرف، وماذا بالوركاني المشهور محمد بن جعفر الذي مات قبل أحمد بن حنبل بثلاث عشرة سنةً، وهو الذي قال فيه أبو زرعة: كان جارًا لأحمدَ بن حنبل؟!

ثم العادةُ والعقل تحيل وقوع مثل هذا، وهو إسلام ألوف من الناس لموتِ وليٍّ لله، ولا ينقل ذلك إلا مجهولٌ لا يعرف!

فلو وقع ذلك، لاشتهر ولتواتر؛ لتوفُّر الهِمم والدواعي على نقل مثله!

بل لو أسلم لموته مائة نفس، لقضي من ذلك العجَب، فما ظنك)؟!

وأخيراً: إن أمر الغلوِّ ترجع بذوره إلى الأمم السابقة؛ من اليهود والنصارى، وقد نهاهم الله تعالى عن ذلك، وأمر نبيَّه صلى الله عليه وسلم بأن يُعْلِمَهُم بما نُهوا عنه، وحذَّر هذه الأمة من أن تتَّبع سبيل أهوائهم، كالغلو وما وقعوا فيه من الانحراف؛ فقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[المائدة: 77].

قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية :

"أي: لا تفرطوا كما أفرطت اليهود والنصارى في عيسى، غلو اليهود قولهم في عيسى: ليس ولد رشدة، وغلو النصارى قولهم: إنه إله".

ولابن عاشور كلامٌ نفيس في حديثه عند هذه الآية، وهو يتكلم عن مفهوم الغُلوِّ، واستشرائه في اليهود والنصارى، في تفسيره التحرير والتنوير إذ يقول:

"والغلو: تجاوز الحدِّ المألوف، مشتقٌّ من غلوة السهم، وهي منتهى اندفاعه، واستعير للزيادة على المطلوب من المعقول، أو المشروع في المعتقدات، والإدراكات، والأفعال، والغلو في الدين: أن يظهر المتدين ما يفوت الحدَّ الذي حدَّد له الدين ونهاهم عن الغلو؛ لأنه أصل لكثير من ضلالهم وتكذيبهم للرسل الصادقين، وغلو أهل الكتاب تجاوزهم الحد الذي طلبه دينهم منهم، فاليهود طولبوا باتِّباع التوراة ومحبة رسولهم، فتجاوزوه إلى بُغْض الرُّسل، كعيسى ومحمد – عليهما السلام – والنصارى طُولبوا باتِّباع المسيح، فتجاوزوا فيه الحدَّ إلى دعوى إلهيته أو كونه ابن الله، مع الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ".

حُقُوقُ نبيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُمَّتِهِ

جاء شهر الربيع وافانا أقبل علينا وهنّانا، به أتانا رسول الله للدين حقاً أهدانا، لَقَدْ أَكْرَمَنا الله تبارَك وَتَعَالى بِبَعْثِهِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِبُزُوغِ شَمْسِ رِسَالَتِه فقَالَ تَعَالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران: 164].

ولنبينا الكريم محمد صلّى الله عليه وسلّم حقوق على أمته كثيرة، وردت في شأن تلك الحقوق نصوص كثيرة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – وضَّحت وفصَّلت وبيَّنت جوانب تلك الحقوق، منها:

أولًا: الإيمان الصادق به صلّى الله عليه وسلّم، وتصديقه فيما أتى به: قال تعالى:﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[التغابن:8]، والإيمان به صلّى الله عليه وسلّم هو: تصديق نبوته، وأن الله أرسله للجن والإنس، وتصديقه في جميع ما جاء به وقاله صلّى الله عليه وسلّم.

ثانيًا: وجوب طاعته صلّى الله عليه وسلّم، والحذر من معصيته: فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به، قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾[الأنفال:20].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ) [رواه البخاري ومسلم].

ثالثًا: اتباعه صلّى الله عليه وسلّم، واتخاذه قدوة في جميع الأمور، والاقتداء بهديه: قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[آل

عمران:31]. وقال صلّى الله عليه وسلّم: (مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) [رواه البخاري ومسلم].

رابعًا: محبته صلّى الله عليه وسلّم أكثر من الأهل والولد، والوالد، والناس أجمعين: قال تعالى:﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[التوبة:24]. وعَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [رواه البخاري ومسلم].

وعلامات محبته صلّى الله عليه وسلّم تظهر في الاقتداء به صلّى الله عليه وسلّم، واتباع سنته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه.

خامسًا: احترامه، وتوقيره، ونصرته: كما قال تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ... ﴾[الفتح:9].

وحرمة النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد موته، وتوقيره لازم كحال حياته وذلك عند ذكر حديثه، وسنته، وسماع اسمه وسيرته، وتعلم سنته، والدعوة إليها، ونصرتها.

سادسًا: الصلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم: قال الله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب:56]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا) [رواه مسلم].

سابعًا: وجوب التحاكم إليه، والرضي بحكمه صلّى الله عليه وسلّم: قال الله تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:65]. ويكون التحاكم إلى سنته وشريعته بعده صلّى الله عليه وسلّم.

ثامنًا: إنزاله مكانته صلّى الله عليه وسلّم بلا غلو ولا تقصير: فهو عبد لله ورسوله، وهو أفضل الأنبياء والمرسلين، وهو سيد الأولين والآخرين، وهو صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، ولكنه مع ذلك بشر كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[سورة الكهف: 110].

إن حق النبي صلّى الله عليه وسلّم على الأمة لعظيم ولكن الواقع يبين بجلاء أن الأمة قد ضيَّعت كثيراً من حقوق المصطفى صلّى الله عليه وسلّم إلا من رحم ربك، ولهذا قال القائل:

تعصي الإله وأنت تُظْهر حُبَّهُ	هذا لعمري في القياسِ بديعُ
لو كان حُبَّكَ صادقاً لأطعته	إن المحبَّ لمن يُحِبُّ مُطيعُ

الفصل الثالث

أطايب الكلام:

تفسيرات وآراء

الحياةُ الطَّيِّبَةُ في ظِلِّ القرآنِ الكريمِ

بَيَّنَ القرآن الكريم مقومات الحياة الطيبة، التي تتلخص في الإيمان والعمل الصالح، فالعمل الصالح لابد له من القاعدة الأصيلة التي يرتكز عليها، قاعدة الإيمان، فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته، إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، والعقيدة هي المحور الذي تُشَدُّ إليه الخيوط جميعاً، فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثاً وغاية، فتجعل الخير أصيلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير لا عارضاً مزعزعاً يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل:97]. وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي يقترن فيها الإيمان والعمل الصالح، فجاءت بصيغة المفرد عشرات آيات، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:62].

وجاءت بصيغة الجمع أكثر من خمسين آية، منها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:25].

فما المقصود بالإيمان وما المقصود بالعمل الصالح:

أولاً: الإيمان: فقد أخرج البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الإيمانُ أنْ تُؤْمِنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشَرِّهِ) [رواه البخاري

ومسلم]، وهذه هي أركان الإيمان الستة التي يجب على كل مسلم أن يؤمن بها ويعتقدها، وأن يَظْهَرَ أثرها في جوانب حياته كافة، من عبادة ومعاملات وأخلاق.

وكان لهذه العقيدة أثرها في إصلاح النفوس، وبناء المجتمعات على أسس عادلة، ويكفي أنَّ من آثارها أنها قد أخرجت ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:110] في التاريخ البشري كله، لأنها طَبَّقَتِ القرآن في واقع حياتها، ويكفينا أن ندرس الواقع التاريخي لهذه الأمة خاصة في أجيالها الأولى لنتعرف على أثر العقيدة الإسلامية في الحياة الإنسانية في صورة واقعية، ساهمت في بناء الحياة الطيبة في الأرض.

ثانياً : العمل الصالح: لا تتحقق الحياة الطيبة بالاستناد إلى العقيدة وحدها التي يحملها الناس في قلوبهم، كما أنها لا يمكن أن تكون حياة طيبة إذا انطلق الناس في الأرض يُشْبِعُونَ رغباتِهِم وَفْقَ أهوائهم من غير التزام بدين ولا عقيدة، فلا بد من استناد العمل إلى الإيمان، والمقصود بالعمل الصالح الذي هو من شروط الظفر بالحياة الطيبة في الدنيا وبالأجر الحسن في الآخرة، هو العمل المشروع الموافق لما شَرَعَهُ الله في كتابه الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وليست الصلاة أو الصيام أو الذكر والدعاء هي وحدها التي تُكْتَبُ لك عبادة في يومك، بل كل عمل اجتماعي نافع يَعُدُّه الإسلامُ من العمل الصالح، وهو عبادة من أفضل العبادات ما دام قَصَدُ فاعلِهِ الخير.

وأعجبُ من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم يجعل الأعمال الدنيوية التي يقوم بها الإنسان لمعيشته، والسعي على نفسه وأهله، من أبواب العبادة والقربات إلى الله تعالى، وإن لم يتعد نفعها دائرته الشخصية، فالزارع في حقله، والعامل في مصنعه، والتاجر في متجره، والموظف في مكتبه، وكل ذي حرفة في حرفته، يستطيع أن يجعل من عمله المعاشي صلاة وجهاداً في سبيل الله وطاعة وقربة إلى الله تعالى، بشرط النية الصالحة واتقان العمل.

لقد تكفل الله تعالى للمؤمنين أفراداً ومجتمعات أن يحييهم حياة طيبة في هذه الحياة الدنيا، وأن يجزيهم الجزاء الأحسن في الآخرة، إن هم عملوا الصالحات فقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:112]، ولقد عاش المسلمون تلك الحياة منذ عصر النبوة، وعاشوها في العصور اللاحقة، ولا يزالون يعيشونها، بقدر ما كانوا ملتزمين بالمنهج الذي رسمه القرآن لهم.

والحديث عن مظاهر الحياة الطيبة التي حَقَّقها القرآن الكريم في المجتمع المسلم التي اجتمع فيها الإيمان والعمل الصالح أوسع من أن تُذْكَرَ في مثل هذه العجالة، لأنها تشمل جوانب الحياة كافة: الروحية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والسياسية، بكل تفصيلاتها، لكني سوف أشير إلى عدد من الجوانب المهمة التي تشقى المجتمعات غير الإسلامية بسببها نتيجة لبعدها عن منهج الله تعالى، وتتلخص في النقاط الآتية: الأسرة، والتكافل الاجتماعي، نظافة المجتمع من مظاهر الانحراف.

فالآباء مكلفون بتربية أبنائهم ، والحرص على تنشئهم تنشئة صالحة، يعبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74]، لقد عاش المسلمون في ظل هذا الجو من المودة والرحمة الغامرة، التي تربط أفراد الأسرة، ولا تزال للأسرة مكانتها في مجتمعاتنا الإسلامية، إلا من اتخذ من الحضارة الغربية قدوة له في حياته، تلك الحضارة التي لم يعد بين المرء وزوجه تلك العاطفة الكريمة التي عرفتها الأسرة المسلمة، والتي تتمثل في ما ذكره القرآن من سكينة ومودة ورحمة، ولم يعد بين الأخ وأخيه ولا بين القريب وقريبه تلك المشاعر الحلوة التي تربط أفراد الأسرة الواحدة، فضلاً عن صلات الناس خارج الأسرة، إن تبادل المنافع والمسرات واللذات هو الرباط الفذ الذي يصل بعضهم ببعض، ولكن النزعة المادية النفعية العارمة طغت حتى على تلك العاطفة الرقيقة الجميلة الأصيلة، وأدَّى ذلك إلى أن يتخلى الآباء عن أبنائهم وبناتهم في أول فرصة

تمكنهم من ذلك، كما أدَّى إلى أن ينسى الأبناء آباءَهم، وأن يتركوهم في شيخوختهم يواجهون مصيرهم وحدهم، أو في بيوت إيواء العجزة، محرومين من الكلمة الطيبة والعاطفة الصادقة التي تخفف عنهم ما هم فيه.

ويسعى الإسلام إلى بناء المجتمع الصالح، كما يسعى إلى بناء الفرد الصالح والأسرة الصالحة، مجتمع الإيمان والفضيلة، مجتمع مكارم الأخلاق والعدل والشورى، ومن دعائم هذا المجتمع ومقوماته (التكافل)، بحيث ينهض القوي بالضعيف، ويعود الغني على الفقير، ولا يضيع عاجز ولا مسكين في هذا المجتمع، والحد الأدنى في ذلك فريضة الزكاة، ومع أن دول الغرب شرعت القوانين التي تكفل الحد الأدنى من متطلبات الحياة لمن لا يجد عملاً، أو يعجز عنه، إلا أنها لم تمنع من استغلال الإنسان للإنسان، وذلك من خلال قيام نظامها الاقتصادي على الربا بحيث أصبح هو أساس الاقتصاد الحديث، وينتهي إلى اعتبار جميع القيم الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية لا قيمة لها إذا تعارضت مع متطلبات السوق والمصالح الرأسمالية، وقد حرم الإسلام الربا، واليوم يعاني اقتصاد العالم أزمات متتابعة من جراء التعامل بالربا، فالاقتصاد العالمي البالغ الضخامة وَجَدَ نفسه في أزمة انهارت على أثرها البنوك العملاقة والشركات الضخمة، ولحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول.

ويمكن الإشارة إلى ثلاثة مظاهر من مظاهر الانحراف في المجتمعات التي ابتعدت عن منهج الله، وهي:

(1) انتشار العلاقات الجنسية المنحرفة بشتى صورها التي دمرت الأسرة، وظهرت بسببها الأمراض الفتاكة، التي كان آخرها مرض نقص المناعة المكتسب الذي لا تزال المجتمعات الإسلامية أقل معاناة منه، لأنه لا يصيب إلا المنحرفين أخلاقياً.

(2) الانتحار وهو اختيار الإنسان إنهاء حياته بنفسه، وهو ظاهرة قديمة في المجتمعات الإنسانية، لكنه استشرى في المجتمعات المعاصرة إلى درجة خطيرة، وهو أحد آفات الحضارة

الحديثة، ولاشك في أن في مقدمة أسباب الانتحار اليأس من الحصول على حياة طيبة في الدنيا.

(3) انتشار الجريمة وفي أبسط صورها الاعتداء على حق الغير، وقد يتجاوز ذلك الاعتداء من سلب المال إلى سلب الحياة.

إن ما تموج به الحضارة الحديثة من مباهج الحياة وزينتها لم يحقق لها السعادة، ولم يجلب لها الحياة الطيبة بل كان سبباً في معاناتها وانحرافها، وما نراه من التخلف الشامل لمظاهر الحياة المادية في المجتمعات الإسلامية لا يعالج باستيراد النظم والقيم الغربية، وإنما بالعودة الصادقة إلا دين الله تعالى الذي يحقق الحياة الطيبة في الدنيا والنعيم الأبدي في الآخرة.

العقل في القرآن الكريم

العقل في اللغة: تدل على حالة حبس وتقييد، ومنه العِقال: ما تربط به الدابة، ومنه العقل: الدية، وقد سميت الدية عقلاً لأن الإبل التي كانت تؤخذ في الديات كانت تعقل (أي تربط) بفناء دار المقتول، وقيل: سميت كذلك لأنها تحبس الدم، وكلاهما صحيح، وأما العقل: فسمي عقلاً لأنه يحبس صاحبه عن الذميم من القول والفعل.

وفي القرآن الكريم جاءت صيغ الفعل (عَقَلَ) في الماضي والمضارع: (عقلوه، نعقل، تعقلون، يعقلون، يعقلها) تسعاً وأربعين مرة.

وأكثر الموارد جاء فيها اللفظ بصيغة الحض والتحريض: (أفلا تعقلون)، وبصيغة النفي (لا يعقلون)، وبعضها جاء بصيغة الترجي (لعلكم تعقلون)، كما جاء الفعل بصيغة الإثبات (لقوم يعقلون) ست مرات.

وأول ما يلفت الانتباه استخدام القرآن الكريم للفظ العقل وروده بالصيغ الفعلية دون الاسمية، فلا نجد في القرآن المصدر ولا الاسم (العقل)، ولا اسم الفاعل (عاقل أو عاقلون) ولا اسم المفعول (معقول)، ويمكن تفسير هذا بوجوه، منها:

1- ينبه القرآن الكريم إلى مفهوم العقل بوصفه فعلاً إنسانياً يطلب إعماله لا إهماله، فلا تكاد تخلو سورة من كتاب الله عز وجل وفي أماكن متعددة منها إلا وتدعو الى إعمال العقل واستخدامه، وهذا أمر تؤكده سياقات ورود الفعل في المواضع التي تشير إلى الآيات التي فصلت لقوم يعقلون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن

كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:164].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 109].

2- عدم استعمال الصيغة الاسمية ينفي عن العقل صفة الثبات وصفة (المطلق) التي ألصقها به الفلاسفة حين اعتقدوا بأن العقل جوهر، فالعقل في المنظور القرآني فعل إنساني نسبي ومتغير، ومن ثم جاء نفي صفة العقل عن أصناف من الناس: كفاراً ومشركين ومنافقين وأهل كتاب:

قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة :171].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 58].

والعقل بهذا المعنى لا يدل على المعرفة النظرية المجردة فقط، وإنما يدل على العلم الذي يعمل به، ولذلك جاء ذكر العقل في معرض الحض على مطابقة القول للعمل، فقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:44].

وقال الكفار حين أدخلوا النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

وهذا يؤكد أن العقل صفة عرضية يقوم بالعاقل، ولهذا المعنى جعل العقل شرطاً في التكليف، وإذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب، فعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل) [رواه أبوداود وغيره].

3- ركز القرآن الكريم على صيغ الأفعال التي تدل على الحركة وعدم تعطيل العقل؛ لأنه نزل على مجتمع واقعه يقوم على التبعية والتقليد وجمود العقل، وعدم الاستقلالية الفكرية والعقلية، فنبه القرآن إلى هذه الروح التقليدية الجامدة وضرورة تحريكها، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

ومن تقدير الإسلام للعقل أن جعله من المقاصد الخمسة: (الدين – النفس – النسل – العقل – المال) التي أوجبت الشريعة الإسلامية بالمحافظة عليها، وفرضت على من اعتدى عليه بالعقوبة، كما حرص الإسلام على تنمية قدرات العقل بالتأمل في مخلوقات الله والتدبر في خلق السموات والأرض.

وأخيراً: كثيراً ما يتجادل الناس في مسألة المفاضلة بين العقل والعلم، وفي مرحلة من تاريخنا كان كثير من المثقفين يعتقدون أن تفضيل العلم على العقل شيء لا يليق بمثقف رصين، ومن أدبيات الجدال في هذه المسألة ما ذكره أحد الشعراء حين قال:

علم العليم وعقل العاقل اختلفا ... من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا
فالعلم قال: أنا أحرزت غايته ... والعقل قال: أنا الرحمن بي عرفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له ... بأينا الله في فرقانه اتصفا
فبان للعقل أن العلم سيده ... فقبّل العقل رأس العلم واعترفا

اللغة الصامتة في ضوء القرآن الكريم

ليس الكلام وسيلة التخاطب الوحيدة بين الناس، ولا يقتصر نقل الأفكار والمعاني على الألفاظ والكلمات المنطوقة فقط، بل هناك اللغة الصامتة التي نعبر عما نقول بحركات وإيماءات وإشارات معينة، وهي لغة عالمية لا تخص شعباً معيناً ولا لغة معينة، وتكون في الغالب معبرة عن المشاعر والأحاسيس والعواطف، كالتعجب والاستفهام والاستغراب والاستحياء والسرور والحزن والتعظيم او التحقير وغير ذلك، وهي أدوات مساعدة لإيصال المعاني وتكون تأثيرها كبيراً على الآخرين.

وتمثل اللغة الصامتة في القرآن الكريم نصاً دلالياً يعج بالإيحاءات، وتعبيراً فنياً بلاغياً أبلغ وأوقع في النفس من الكلام الصريح، قال الله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم 29]، أي أشارت إلى عيسى عليه السلام وهو في المهد فتكلم، وقيل: أشارت إليه أن كلموه هو.

وقال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران:41]، قال الزمخشري: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾: إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما وأصله التحرك، فالآية تظهر أن الرمز سد مسد الكلام، وأدى الرسالة نفسها.

وقد ثبت في كثير من الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كثيراً ما يستخدم هذه الوسائل لإيصال الرسائل، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه يقول: كانت الريح الشديدة إذا هبت عرف ذلك في وجه النبي صلى الله عليه وسلم" لأنه عليه الصلاة والسلام يخشى أن تكون هذه الريح عذاباً، فتظهر بعض التغيرات على وجهه الشريف.

ومن اللغة الصامتة التي وردت في القرآن الكريم توظيف حركة العين: فالعين للمبصر أساس اللغة الصامتة، وقد تنطق العيون بحب صادق عميق تعجز الكلمات عن بيانه، يقول الإمام الألوسي رحمه الله: " وكثيراً ما يعرف الإنسان محبه ومبغضه من خلال النظر، ويكاد النظر ينطق بما في القلب".

وتتخذ لغة العيون في البيان القرآني أشكالاً تعبيرية مختلفة، فالدموع المنهمرة من العيون تعبير صادق في بيان المشاعر، وتأثيره يفوق أي كلام، قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة:92]، فبكاؤهم كان دليل صدقهم لعدم تمكنهم من الجهاد في سبيل الله، فقد نطقت عيونهم وباحت بما في نفوسهم من صدق المشاعر.

وقد يكون البكاء دموع تماسيح تمثيلاً يفتعله صاحبه ويتباكى تصنعاً، ويفرك عينيه كذباً، ويحاول غالباً ما يستر ذلك بالضوء الخافت كما فعل إخوة يوسف عليه السلام بين يدي والدهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف:16]، فقد اختاروا وقت العشاء يمثلون البكاء.

وهناك دلالات أخرى لتوظيف حركات العين كابيضاض العين حزناً، أو خضوع العين ذلاً، أو شخوص العين دهشة، أو تدوير العين ألماً مصحوباً بخوف، أو الإزلاق بالعين كراهية، أو الغمز واللمز استهزاء.

وإذا ألقينا نظرة على اللغة الصامتة اليدوية فسنجدها غالباً ما تكون للتواصل عن بعد، أو في الأماكن المكتظة والصاخبة حيث لا يصل الصوت، أو بين أصحاب المهن إخفاء لقصدهم عن الآخرين وغير ذلك.

فتقليب الكفين مثلاً للدلالة على الندم والحسرة، قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 42]، فتقليب الكفين هنا كناية على الندم والحسرة، وقد سبق التعبيرُ الحركي باليد التعبيرَ القولي، إذ مشهد دمار البستان أفضى إلى تفاعل نفسي قبل الفعل القولي.

وعض اليدين كناية عن شدة الألم وفرط التحسر، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:27]، وهذا التعبير الصامت يحتاج إلى تأمل، فلم يقل الباري: " يعض أصابعه" أو يعض يده" بل قال: يعض الظالم على يديه " لأن الموقف الذي يعيشه هذا المجرم يفوق الخيال فقد أحدث لديه هلعاً عظيماً في نفسه، فلهول ما يرى ويشاهد عض كلتا يديه معاً، واستخدم الفعل المضارع "يعض" للدلالة على أنه لم يعض يديه مرة واحدة فقط؛ بل تكرر العض وتجدد ولم يشعر بالألم من هول ما يشاهد.

وهناك دلالات أخرى في بسط الكفين للطلب أو البطش، أو عض الأنامل للتغيظ، أو وضع الأصبع في الأذن خوفاً أو رفضاً للسماع.

أما حركات الرأس فتمثل لغة صامتة رائعة ووسيلة من وسائل الاتصال بين البشر، وقد أبرز القرآن الكريم عن طريق تنوع حركات الرأس في الدنيا والآخرة كثيراً من المعاني، كالتولي والإعراض عن سماع الحق، والغضب، والذل، والتعجب وغير ذلك.

قال الله تعالى حكاية عن المجرمين يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:12]، ونكس رأسه أي

أماله وطأطأه من الذل والخجل، وهذا هو الخزي والاعتراف بالخطيئة، وإقرار بالحق الذي جحدوه، ولكن يجيء هذا كله بعد فوات الأوان.

وقد يكون رفع الرأس وتصويبه مع مد العنق دليلاً للإسراع في إجابة الداعي يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:43]، الإُقناع: رفع الرأس والنظر في ذل وخشوع، أي يوم يقوم الظالمون من قبورهم مسرعين رافعي رؤوسهم لا يبصرون شيئاً لهول الموقف وقلوبهم خالية لكثرة الوجل مما ترى، فجاءت اللغة الصامتة لتبين انه مجبر على رفع الرأس وفتح العينين ليرى ما لا يحب أن يراه، ويسرع إلى مصير لا يشتهيه.

كما ان هزَّ الرأس لسان فصيح للدلالة على التعجب والإنكار والاستهزاء، وقد جاءت هذه الحركة في خطاب كفار قريش لما أنكروا البعث، قال الله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: 51].

قال ابن منظور في لسان العرب: " نغض الشيء وانغض، تحرك واضطرب. وأنغضه هو أي حرَّكه كالمتعجب من الشيء"، وقال ابن عباس: الإنغاض: هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل.

فاللغة الصامتة في هز الرؤوس وتحريكه كان للتشكيك بما يسمعون، وإنكاراً للحديث، وتعجباً منه.

ومن ذك أيضاً لوي الرأس إعراضاً واستكباراً وقد جاء هذا التعبير الفريد تصويراً لحال المنافقين بهذه اللغة الصامتة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون:5]، فالآية تبين شدة ما في قلوب

المنافقين من الحقد على الإسلام، حتى أنهم لم يستطيعوا إخفاءه؛ فظهر من خلال إمالة الرأس، ولذلك جاء الفعل مشدداً للمبالغة في التكبر والإعراض.

أما القدم: فاللغة الصامتة لتوظيف حركة الرِّجل تارة يكون للحث أو للتحفيز وتارة يكون أمراً أو غير ذلك، وتشتمل على كثير من المعاني، وللمشي أشكال تمثل هيئات صامتة يقرؤها ويفسرها من ينظر إليه وتنم عن شخصية صاحبه، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾[يس:20]، والسعي هو مشي سريع دون العَدْوِ، فوصف الله تعالى الرجل بأنه يسعى كناية عن اهتمامه ومسارعته لتغيير المنكر ونصيحة قومه، فدلالة السعي الجدية والحث.

ومن فصاحة اللغة الصامتة ضَرْب الرِّجْل بالأرض للفت الأنظار وهذا فعل النسوة، قال الله تعالى: ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[النور: 31]، لأن في ضرب المرأة رِجلها على الأرض تنبيه لمن حولها أن انظروا إليَّ، فهي وإن لم تتكلم بلسانها إلا أنها أوصلت مرادها باللغة الصامتة والتي تتمثل بصوت خلخالها، وهذا من أفعال الجاهلية وقد حرمها الإسلام.

وقد يكون المشي هوناً بسكينة ووقار وتواضع، وقد يكون المشي مرَحاً وتكبراً وخيلاء، وقد تكون المشية إيماء إلى الحياء والخجل، كما قال الله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[القصص:25]، أي مبالغة في الحياء، فهي تمشي بدون تبختر أو تثنٍ أو إظهار لزينة.

وهكذا فإننا نجد أن القرآن الكريم حوى كثيراً من ألفاظ اللغة الصامتة، ووظفها توظيفاً بيانياً يتناسب مع سياق الآيات الواردة فيها، فمن يتدبر آياته يجد كيف أن الحركات والإيماءات

تلعب دوراً مهماً في عملية التواصل، ومن الأهمية بمكان توظيف هذه اللغة الصامتة في العملية التربوية والتعليمية لما لها من دور فعَّال في تحقيق الأهداف بأقل جهد وأقصر زمن.

المال عصب الحياة

يعتني الإسلام بالمال، لأنه عصب الحياة، وشرايين الاقتصاد، ولا يتم للأفراد ولا للأمم أمر إلا به، كما يحض على الكسب المشروع، وينظم تداوله بين الناس، ويحث على إنفاقه في وجوه الخير، ويحرم تضييعه في غير نفع أو فائدة، فإذا فرغت منه يد المرء ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وسدت في وجهه فجاجها، إن جاع لا يجد ما يقيم به صلبه، وإن بليت ثيابه لم يجد ما يستر به عورته؛ أو يدفع به الحر والقر، وإن خلت منه خزائن الدولة ضعف شأنها، واستهان بها أعداؤها، وطمع فيها من يليها ومن يبعد عنها، وعجزت عن الدفاع عن نفسها، وأصبحت لقمة سائغة لكل من يحاول ابتلاعها، والتاريخ يشهد بذلك، وأحداث الحاضر تنطق به أيضاً وتؤيده.

إن الدراهم كالمراهم تجبر العظم الكسيرا
لو نالهنَّ ثعيلب في قومه أضحى أميرا

ولذلك دعا الإسلام إلى العمل وكسب المال الحلال، حتى لا يكون المسلم عالة على الآخرين؛ ويصون ماء وجهه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾[الجمعة: 10].

وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك: 15].

وقال عليه الصلاة والسلام: (لأن يحتطب أحدكم حُزمة على ظهره، خير له من أن يسأل أحداً، فليعطيه أو يمنعهُ) [متفق عليه].

ولكن النفس إذا ذاقت لذة المال وكسبه، فُتنت به، وأحضرت الأنفس الشح، وولعت بالحصول عليه بكل وسيلة ومن كل سبيل، وضنت بحق الله تعالى فيه فلم تخرج منه حق السائل والمحروم، ولم تطعم يتيمًا ولا مسكينًا، فأراد الله تعالى أن يَحُد من جشع النفوس ويكبح جماحها؛ فنبهها إلى ما في ذلك من سوء المغبة، وأن المال بلاء يمتحن الله به عباده ليتبين المصلح من المفسد، ويمتاز الشاكر من الكنود؛ فقال الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: 11].

وقال أيضاً: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 92].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ؟ قَالَ: (رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمَانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ، وَرَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ فَأَخَذَ مِنْ عُرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا). [رواه النسائي وابن حبان والحاكم].

كل هذه النصوص تهيب بالإنسان إلى أن يتحرر من أسر المال، وأن ينفقه في سبل الخير ووجوه البر، ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

ونهى الله تعالى عن التبذير والإسراف وأنذر بسوء المصير فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29].

وقال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 26، 27].

ووضع دستوراً حكيما يعلّم الناس الاقتصاد في إنفاق المال فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[الفرقان: 67].

كما نهى الإسلام عن أن يخرج الإنسان من ماله كله، ولو في وجوه الخير والبر؛ فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك رضي الله عنه لما أراد أن يخرج من ماله كله صدقة لله تعالى حين تاب الله عليه، فقال له: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) [رواه الترمذي].

وأمر الأوصياء بالحرص على أموال اليتامى وتثميرها؛ وحسن الرعاية لها حتى لا تذهب ضياعًا؛ فإذا تبين رشدهم، دفعت إليهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[النساء: 10].

وقال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: 6].

وجعل الإسلام في أموال الأغنياء نصيباً مفروضاً للفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون، إبقاء على كرامة المؤمنين أن تجرح بِذُلِّ التكفف والسؤال؛ وتوثيقاً لأواصر الود والمحبة بين الأغنياء والفقراء، حتى لا يحسدوهم على ما آتاهم الله من فضله.

ولقد أظل المسلمين عصرٌ كان الغني يحمل زكاته على كفه؛ ثم يطوف بها على الفقراء فلا يجد من يعطيه، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: (تَصَدَّقُوا فإِنَّهُ يَأتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا، يَقُولُ الرَّجُلُ :لَوْ جِئْتَ بِهَا بالأَمْسِ لَقَبِلْتُهَا، فأمَّا الْيَوْمَ فَلَا حَاجَةَ لي بِهَا) [رواه البخاري].

وكانت هذه الأموال التي لا تجد راغباً فيها؛ ترد إلى بيت المال لتنفق في مصالح المسلمين: تؤمن بها الطرق؛ وتشق الأنهار، وتعبَّد بها الدروب، وتقام الجسور، ويُعَدُّ بها ما يستطاع من قوة ومن رباط الخيل.

فهل رأت الدنيا عصراً كهذا العصر الذي اغتنى فيه الناس بالمال والفضائل يوم كان الناس مستمسكين بدينهم، فما أجمل الإسلام من دين! وما أعدل شريعته!

لكن للأسف فإن الناس في عصرنا اليوم ينظرون إلى أصحاب الأموال نظرة إعجاب وانبهار ولو كان سيئ الأخلاق، ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[القصص:79]، وقال الشاعر:

من كان يملك درهمين تعلمت	شفتاه أنــواع الكلام وقالا
لولا دراهمه الـتي يـزهـو بــها	لوجدته في الناس أسوأ حالا
إن الغني ولـو تكـلم كاذبـاً	قالوا صدقت وما نطقت محالا
أما الفقير ولـو تكـلم صـادقاً	قالوا كذبت وأبطـلوا ما قالا
إن الدراهم في المواطن كلها	تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة	وهي السلاح لمن أراد قتالا

ولكن المؤمنين الصادقين المتصلين بالله تعالى فلهم ميزان آخر يقيم الحياة، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:80].

وعندما تبلغ فتنة المال ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تتدخل القدرة الإلهية لتضع حداً للفتنة، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المنتَصِرِينَ﴾[القصص:81]، وهكذا في جملة قصيرة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾

فابتلعته وابتعلت داره معه، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقًا، وذهب ضعيفاً عاجزاً، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال.

وقديماً قال شاعرهم:

إن قـلَّ مـالي فلا خِلٌّ يصاحبني	وفي الـزيـادة كل الـناس خُلاني
كم من عدو لأجل المال صاحبَني	وكم من صديق لفقد المال عاداني

الإسلام أول من أنار مصابيح التخصص

ولع ألباب أقوام بحب الغرب ومدنيته، وقالوا: إنما نجحت أوربا وتبوأت عرش السيادة بالتخصص في شتى العلوم والمعارف، وزعموا أن التخصص من ابتكارات الغرب، ولكن بنظرة سريعة إلى تاريخ الإسلام تراه هو أول من أنار مصابيح التخصص في العلوم، وها هو القرآن الكريم ينادي على منبر العلم بصراحة واضحة إلى التخصص بالعلوم قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: 122].

هذه الآية الكريمة تحض الأمة على التخصص في علم الفقه والدين ليكون المتخصصون فيه مناراً يهتدى بهم عند الرجوع إليهم في مسائله وقضاياه؛ ثم ترى القرآن في مواضع أخر يزيد في صراحته ويضع نظاماً عالياً للتخصص فيقول:﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59]، ﴿{وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 14]، فهاتان الآيتان الموجزتان تدعوان العالم لسؤال الخبراء في علومهم ومعارفهم؛ والخبير صيغة مبالغة من الخبرة، وهو من له خبرة تامة، في علم من العلوم، أو صنعة من الصنائع، فالبشر لا يستفيدون إلا من الخبير الحاذق، الذي صرف قسماً كبيراً من حياته في اختبار ومعالجة علم أو صنعة، أما غير الخبير (أي غير الأخصائي) فيخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، ويكون ضرره على البشر أكثر من نفعه، وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» والعلم الناقص لا شك أنه غير نافع للبشر.

ولقد أعطى نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم دروساً عملية مثمرة في التخصص، فصار كلما رأى ميلاً من نفس أحد الصحابة إلى علم، يشجعه ويعطيه شهادة الاختصاص على مرأى ومسمع من سائر الصحابة الكرام، ليكون مرجعاً للخاص والعام، ولا أدل على ذلك مما روي

أنه حينما استشعر ولع ابن عمه علي في القضاء مع حذقه له قال صلى الله عليه وسلم: (أقضاكم علي) وكانت الصحابة أمامه يستمعون منه هذه الشهادة التي سطرت على صحيفة الوجود، فخضعوا لهذا الأمر الواقع لعلمهم أن علياً باب مدينة العلم أهل لأن يتقلد هذا المنصب الجليل بحق وجدارة.

ولما رأى من زيد بن ثابت حذقاً في علم الفرائض والميراث ودقة في الحساب أعطاه شهادة سطرها له التاريخ وحفظها له إلى قيام الساعة، وصار أستاذ الدنيا في هذا العلم، وهي قوله صلى الله عليه وسلم: «أفرضكم زيد» قال صاحب الرحبية في هذا المعنى:

وأن زيداً خصَّ لا محاله	بما حباه خاتم الرسالة
من قوله في فضله منبِّهاً	(أفرضكم زيد) وناهيك بها

وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالجابية فقال: من يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت.

ولما سمع من أُبَيّ بن كعب قراءة صحيحة الأداء محكمة الضبط شهد له بقوله صلى الله عليه وسلم: «أقرؤكم أُبَيّ».

وسار المسلمون في عصورهم الذهبية الأولى على هذا المنهج القويم، فكان منهم أخصائيون في كل علم وفن، فمثلاً (سيبويه) اختص بعلم قواعد اللغة العربية (وهو غير عربي) حتى صار بها إماماً كبيراً وألف كتابه المشهور (الكتاب) حتى صار مرجعاً لسائر الدنيا إلى يومنا هذا.

وهؤلاء الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة (أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل) رضوان الله عليهم، قد اشتهروا بعلم فروع الأحكام واستنباطها من الكتاب والسنة، مع اضطلاعهم الواسع في فنون المعارف، فكانت مذاهبهم رحمة للأمة الإسلامية جمعاء، يغترفون أحكام دينهم من بحورها إلى يومنا هذا.

وقال الشافعي في حق أبي حنيفة: كل الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.

وتفوَّق حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ومقاتل ومجاهد في علم تفسير القرآن، ففهم الناس القرآن من تفاسيرهم.

وأصحاب الصحاح الستة (البخاري ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه) وكلهم من غير العرب؛ اشتهروا في علم الحديث، ومعرفة صحيحه من ضعيفه، حتى صارت كتبهم الحجة البالغة بعد كتاب الله عز وجل.

ومع ذلك لما رأى أحد علماء الحديث براعة أبي حنيفة وحذقه في الاستنباط من الحديث؛ قال له قولاً يدل على الإخلاص، ويبرهن على اعترافه بالاختصاص: (نحن الصيادلة وأنتم الأطباء) أي نحن في الحديث كالصيدلي عنده الدواء ولا يعرف نفعه، وأنتم كالطبيب يعرف مواقع الداء فيصف الدواء.

أما ابن رشد وابن سينا والفارابي فقد ارتفع ذكرهم في العلوم الفلسفية، والرازي وداود الأنطاكي قد اشتهرا بعلم الطب والطبيعة، وجابر الكوفي وابن ماجة السرقسطي قد اشتهرا بالعلوم الرياضية، وابن العميد وعبدالحميد وبديع الزمان الهمذاني كانوا مثلاً أعلى في الكتابة الحكيمة والإنشاء البليغ، والمتنبي والبحتري وأبو تمام والمعري كانوا ملوك الشعر في العصر العباسي، إلى غير هؤلاء من مشاهير الأمة الإسلامية وأعلامها ممن لا يتسع المقام لذكر أسمائهم.

وكان من أدب العالم المتخصص؛ أنه إذا سئل عما ليس من اختصاصه لا يجيب سائله عنه خشية من الوقوع بالخطأ؛ أو يستنبط له الجواب من العلم المختص به؛ ومن ذلك ما روي أن الكسائي حين سئل عمن يسهو في سجود السهو فأجاب: ليس لي معرفة تامة بالفقه ولكني أعلم من قواعد اللغة العربية: (أن المصغَّر لا يُصغّر) فأصاب كبد الحقيقة من علمه المختص به هذا.

ولكن بعد انصرام عهد هؤلاء الأعلام خلفهم خلْفٌ أضاعوا هذه الجهود التي نفعت البشرية جمعاء، لكنهم لما تركوا هذا التراث العظيم في كتبهم القيمة ونسيها المسلمون؛ جاءت أوروبا فوجدت الثمرة يانعة فقطفتها من حيث لا ندري؛ وإذا بها قد آلت في أيديهم إلى سهام صائبات؛ صوبوها نحو كبد كياننا الإسلامي ففرقوا الأمة شذر مذر، وأضعفوا قوة كانت ترجف منها أوتاد الأرض، وجعلوا أنفسهم أسياداً على الرقيق، ويا للأسف كل ذلك لم يوقظنا من سباتنا العميق.

وأخيراً: إن معارف البشر واسعة، والعمر قصير، فلا يمكن أن نحيط بجميعها فلنجتهد ولنتخصص لننفع الأمة والبشرية كما فعل آباؤنا الأولون، ولنتمسك بقول ربنا المكنون: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: 43].

الحج: شعائر ومشاعر، وأخلاق وأرزاق، وذكر وشكر

الحجُّ هو الرُّكن الخامس من أركان الإسلام، وهو ركيزة أساسيَّة من ركائز الدِّين، ومَنفذ هامٌّ من منافذ الإيمان، وسميت سورة كاملة من القرآن الكريم باسمه دون سواه من الفرائض، والحج فريضة العمر، فرَضه اللهُ على المستطيع، والاستطاعة ثلاثة أنواع: بدنيَّة، وماليَّة، وأمنيَّة، واستِطاعةٌ رابعة خاصَّة بالمرأة؛ أن يكون لها مَحرَم، فمن لم تجد محرمًا، فلا حجَّ عليها؛ لأنَّها ليست مستطيعة.

عن أبي هريرة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل: أيُّ العمل أفضلُ؟ فقال: (إيمانٌ بالله ورسوله)، قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: (الجهادُ في سبيل الله)، قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: (حجٌّ مبرُورٌ) [رواه البخاري].

الحج شعائر ومشاعر: فعندما يأتي مَوسم الحجِّ تتحقَّق الآيات، وتتلاحق الذِّكريات، وتتلاحَم العظاتُ، وتتجمَّع العبادات، في أفضل بُقعة عرفَتها الأرضُ، وأكبرتْها الدُّنيا، وجمَّلها الدِّين، وسطَّرها التاريخ، وخلَّدها القرآن، وقدَّرها الرحمن: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: 97].

ويعظِّم المؤمن الشَّعائر: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].

وفيه الأمان والطَّهارة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125].

لذلك قال بعضُ العلماء: الحجُّ أفضل العِبادات؛ لاشتمالِه على عِبادة ماليَّة، وعلى عِبادة شعائريَّة، وعلى عبادة التفرُّغ، فيه معنى الصِّيام، ومعنى الصَّلاة، ومعنى الاعتكاف، ومعنى الزَّكاة، ومعنى المرابَطة في سبيل الله، ومعنى الغَزو، ومعنى تَلبية الدَّعوة، فكلُّ هذه المعاني مجموعة في الحجِّ!

والحج أخلاق وأرزاق: الحاجُّ يكتسب الأخلاقَ؛ فما أجمل أن يتأدَّب مع ربه! ما أجمل أن يتأدَّب مع الكون مِن حوله! كيف؟ أدبٌ مع الحجَر فيُقبَّل، وأدب مع الشَّجَر فلا يُقطع، وأدبٌ مع الطَّير فلا يُروَّع، وأدب مع الصَّيد فلا يُقتل، وأدب مع المكان فلا يُلحَد فيه أو يُظلَم، وأدب مع الإنسان فلا يُسبُّ أو يُشتم؛ ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: 25].

وقال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197].

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للفضل حين غطى وجهه يوم عرفة: (هذا يوم مَن ملك فيه سمعه وبصره ولسانه، غفر له) [عزاه ابن حجر في (فتح الباري:70/4) إلى أحمد وابن خزيمة].

ويمسح الذُّنوب: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (منْ حجَّ فَلَم يرْفُثْ، وَلَم يفْسُقْ، رجَع كَيَومِ ولَدَتْهُ أُمُّهُ) [أخرجه البخاري في باب فضل الحج المبرور].

والحج رزق حيث ينتفي الفقر ويزداد الرِّزقُ؛ فهو مَوسم تجارة، في كلِّ الحالات مع الله؛ تجبى إليه ثمرات كلِّ شيء: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 57].

ويترقَّى المؤمن على سلَّم الفضيلةِ بالأعمال الصَّالحة حتى يصلَ لدرجة الإحسان، فالحاجَّ يترقَّى من الإحرام (التجرُّد)، ثمَّ التلبِية (الامتثال والطاعة)، فالطَّواف (الدَّوران حول قدسيَّة المكان، وعظمَة الزمان، وبلوغ الإيمان)، فالسَّعي (الثِّقة في الله والأخذ بالأسباب)، فالوقوف بعرَفة (طلب الرِّضوان من الرَّحمن؛ اقتداء بالمصطفى العدنان، وتيمُّنًا بالنبيَّينِ الكريمين إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى نبيِّنا أفضل الصَّلاة وأتمُّ التسليم)، ثمَّ الرَّمي (التخلُّص من نوازع الشرِّ، وضَرب موزِّعي الضَّلال، ورَجم شياطين الإنس والجنِّ على السواء)، ثمَّ الذَّبح، وهو آخر دَرجة في سلَّم ترقِّي الحجيج (رمز التضحِية والفِداء والعَطاء وبلوغ درجة الإحسان).

ويتذكر الحاج حجة الوداع يوم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحج معه مائة ألف من المسلمين، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرة الوداع، فانشرح صدره بهذه الجموع الغفيرة والألوف المؤلفة التي لبت النداء، وجاءوا رجالاً يمشون على أرجلهم، وركباناً على كل ضامر، فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة الوداع، وكانت خطبة جامعة شاملة؛ بيّن فيها حرمة دم المسلم وماله وعرضه؛ وعظم الأمانة؛ وخطر الربا؛ وأوصاهم بالنساء خيراً؛ ثم أشهدهم على ذلك فقال: ألا هل بلغت؟ فقال المسلمون: نعم، فرفع صلى الله عليه وسلم إصبعه إلى السماء وقال: اللهم فاشهد.

والحج ذِكر وشُكر: ففي أيامه يسنُّ التكبيرُ والتحميد، والتَّهليل والتسبيح أيام العشر وسائرُ أنواع الذِّكر، والجهر بذلك؛ في المساجِد والمنازِل والطرقات، وكلِّ موضعٍ يجوز فيه ذِكر الله؛ إظهارًا للعبادة، وإعلانًا للرِّيادة، وإعمالاً للدِّين، وإنجازًا للعقيدة، وتعظيمًا لله، يجهر به الرِّجالُ وتُخفيه النِّساء؛ قال الله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾

[الحج: 28]، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم قال: (ما من أيامٍ أَعظم عند الله ولا أحب إليه العملُ فيهنَّ من هذه الأيَّام العَشر؛ فأكثروا فيهنَّ من التهليل والتَّكبير والتحميد) [رواه أحمد].

إنَّها مَشاعر لا تُوصَف، وأحاسيس لا تُكتب، إنَّما يستطعِمها الَّذي يؤدِّيها، ويحسها الذي يلبِّي نداءَها، ويستشعرها الذي يَحضرها، فينظر الكعبة، ويعانِق الحجرَ، ويصلِّي عند المقام، يسعى كما سعَت هاجَر عليها السلام، ويضحِّي كما ضحَّى إبراهيمُ عليه السلام، ويطيع كما أطاع إسماعيلُ عليه السلام، ويطوف كما طاف محمدٌ عليه الصَّلاة والسلام، ويقبِّل الحجرَ كما قبَّل عمر رضي الله عنه، فقط عن حبٍّ ورَغبة وإخلاصٍ، لعلَّ قدمًا تأتي مكان قدم، وطوافًا يأتي مكان طواف، وسعيًا يأتي مكان سعيٍ، فيزداد الإيمان، ويكون الغُفران، وينتشر الأمنُ ويأتي الأمان.

اللهمَّ ارزقنا حجًّا مبرورًا، وسعيًا مَشكورًا، وذنبًا مَغفورًا، وتجارةً لن تبور.

الكفر ملة واحدة .. فكرة مناقضة للقرآن؟!

كان النبي صلى الله عليه وسلم أعظم السياسيين، فالسياسة علم شريف دنسه ساسة العصر من الطغاة والظلمة، إلا أن كثيراً من المعاصرين الذين يدَّعون اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم ينظرون إلى سيرته العطرة بعين حولاء، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائد أول دولة إسلامية يستعدي الناس عليه وعلى دولته، ومن كان يبتعد عنه متراً لا يصف المسافة بينهما ميلاً، وإذا كانت خطيئة قوم تزن رطلاً لا ينعتها بأنها قنطار!

وهو الذي نزل على قلبه القرآن الكريم القائل: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمن:9].

وفي زماننا شاعت مسلَّمة وهمية أو قل: ثابت وهمي يقول: (الكفر ملة واحدة) لا يفتأ يتردد هذا القول على ألسنة كثير من المسلمين وعلى أقلامهم وكأنه حقيقة ثابتة لا ريب فيها!

إن فكرة "الكفر ملة واحدة" فكرة مناقضة للنص القرآني الذي يميز مللاً غير إسلامية مختلفة، ولا يقول عنها بأنها ملة واحدة !!

بل بيان التباين في التصور والعلاقات واضح جلي؛ حيث يقول الله تعالى بصراحة: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [سورة آل عمران:113]، نعم ليسوا سواءً !

والقرآن الذي يتلى إلى يوم القيامة يعطي المسلمين درساً في التمييز بين من هو أقرب ومن هو أبعد؛ حين يتكلم عن الفروق في السلوك حيال الإسلام بين الشرائع الدينية المختلفة! والواقع التاريخي يؤكد على هذا الاختلاف والتباين.

أما الوفاق الذي جرى في العقود الأخيرة فهو وفاق سياسي لا عقدي، يدل على ذلك أن العقائد الدينية أصبحت تُسخَّر وتُستغَل وتُوظَّف في خدمة الأهواء أو المصالح السياسية الظالمة، وما فعله السيستاني ليس ببعيد عنا، حيث كشف وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد، أن المرجع الشيعي الأعلى في العراق علي السيستاني استلم 200 مليون دولار وأصدر فتاوى دينية للمساعدة في الغزو الأمريكي للعراق في مارس 2003م، وهو ما يكشف في ثناياه عن تواطئه مع الاحتلال، وقال حينها: لا جهاد إلا بخروج المهدي! بينما نادى بالجهاد فوراً حينما ثار المسلمون المظلومون على الطاغية في العراق! ولم يتوقف عن الجهاد في ظل غياب المهدي صاحب الزمان!!

إن التباين والتمايز من خلال الآية التي ذكرتها ﴿لَيْسُواْ سَوَاءً﴾ هو جزء من منهج متكامل ذو براهين ساطعة منها:

- برهان التفريق بين فريق وآخر قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[سورة البقرة:75].
- وبرهان التمييز بين طائفة وأخرى قال الله تعالى: ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾[سورة الصف:14].
- وبرهان التمييز بين لكثرة والقلة قال الله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[سورة المائدة:66] لاحظ في كل البراهين الماضية حرف (من) التي تفيد التبعيض، منهم وليس كلهم!
- وبرهان الاختلاف فيما بينهم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة البقرة:176].

إذن؛ الكفر ليس ملة واحدة، ولو كان كذلك لما انحاز المسلمون ـ انحياز المؤيد المبتهج المتمني ـ إلى الروم النصارى، ضد الفرس المجوس في الحرب التي كانت مشتعلة بين الطرفين إبان الطور المكي لمجيء الإسلام!

ولو كان الكفر ملة واحدة، لما فرّق القرآن الكريم بين موقفي اليهود والنصارى من المسلمين: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُواالَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [سورة المائدة:82].

ولو كان الكفر ملة واحدة، لسوّى الاسلام في التزاوج أو الأنكحة بين الكتابيين والمشركين!

إن القرآن كتاب العدالة المطلقة لأنه كلام الله الحكم العدل، كما أنه كتاب الأمانة العلمية التامة، والمعيار الحق في النظرة إلى الناس، وفي الوصف والتصنيف والميزان القضائي والحكم، فمثلاً: نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [سورة آل عمران:75] وهذا الوصف بالأمانة نزل في طائفة من اليهود!!

على الرغم من أن طوائف أخرى من اليهود عادت الإسلام والمسلمين عداء شديداً!

هذا التصنيف الموضوعي في القرآن الكريم تبنى عليه نظرة واقعية، ورؤية دبلوماسية، وأفق حضاري للعالم الإنساني، فالمسلم ليس ذاك الرجل المغرم بتكثير الأعداء وتقليل الأصدقاء! ولا بالذي يجعل المحايد عدواً، ولا ذاك الذي يجعل الصديق يندم على صداقته!

إن تحديد دائرة العداوات تبعد تصوّر العالَم بأن الإسلام عدوّ الجميع ! وخاصة في هذه الظروف المشحونة بالإحباط، فالكفر ليس ملة واحدة، وبراهين المنهج القرآني الرصين أثبت ذلك واضحاً دون مواربة، لذلك ينبغي التركيز على كسب الأكثرية غير المعادية، أو على الأقل تحييدها لئلا تتحول هي الأخرى إلى الصف الآخر؛ فلا ينقصنا أعداء!

المعجزة القرآنية في الراحة الحرارية

لقد تحدَّثت العديد من الآيات القرآنية عن العلاقة بين الإسلام وعمارة الأرض، ولو تأمَّلنا أسماء سور القرآن الكريم، لوجدنا أن الله تبارك وتعالى قد اختار أسماء لبعض هذه السور لها ارتباط بالعمارة والبناء، ومن أمثلة ذلك سور "البلد" و"الكهف" و"الحجرات"؛ كما جاء ذكر العمارة بلفظها أو اشتقاقها في بعض السور؛ وآيات قرآنية أخرى تذكر أسماء بعض القرى والمدن؛ مثل: "بكّة" بالجزيرة العربية، و"سبأ" باليمن، و"مدين" بفلسطين، و"إرم" بالأحقاف، و"بابل" بالعراق، وذلك من خلال قَصص الأمم البائدة، وما كانت تحويه هذه المدن من حضارات تميَّزت بالتقدم العمراني الكبير.

وعلى مدى التاريخ كان المناخ عاملاً حاسماً في تحديد شكل العمارة ونمطها، فالتخطيط العمراني للمدن الإسلامية القديمة ساعد في تقليل تعرض الجدران الخارجية لأشعة الشمس؛ وكذلك الشوارع الضيقة تحمي المارة من أشعة الشمس، واستخدام الألوان الفاتحة لدهان الأسطح والجدران في المناطق الحارة.

وفي عصر ناطحات السحاب هناك الأبنية الذكية وهي التي تحتوي على تطبيقات التقنية الحديثة، كمهام المراقبة، والتحكم بتكييف الهواء ونوعيته، والتغذية الكهربائية، مع تقليل في هدر الطاقة.

أما (العمارة البيئية) فأحد أهم فروع علم العمارة وتخطيط المدن، والذي يهتم بدراسة العناصر البيئية والمناخية التي تؤثر في تصميم المباني والفراغات الخارجية؛ من أجل تهيئة وتوفير المناخ المناسب لراحة الإنسان؛ سواء داخل المباني، أو في الفراغات الخارجية في المحيط العمراني.

وهناك مصطلح حديث في مجال علم العمارة والتصميم البيئي، يدعى (الراحة الحرارية) ويعرِّفها بعض العلماء بأنها: "حالة العقل التي يشعر فيها الإنسان بارتياح ورضا فيما يتعلق بالبيئة الحرارية الموجود فيها"[1].

ويعرفها آخرون بأنها: "الإحساس بالظروف المادية المنقولة بواسطة الحواس والذهنية المرضية للإنسان، وتعرف بشكل عام بأنها: حالة الجهاز العصبي المركزي التي تؤدي إلى شعور الإنسان بالراحة في البيئة المحيطة به "[2].

فأي إنسان طبيعي لا يشعر بالراحة الحرارية إذا زادت أو قلَّتْ درجة الحرارة عن حدود معينة؛ أي: إنه لا يشعر بالراحة في درجات الحرارة العالية، مثلما لا يشعر بالراحة أيضًا في حالات البرودة الشديدة.

"فإذا كانت درجة حرارة الهواء أعلى من درجة حرارة البشرة، فان الحرارة المتولدة من الجسم تجد صعوبة في الخروج، وينتج عن ذلك ارتفاع في درجة حرارة البشرة، ونشاط الغدد التي تفرز العرق، ويمكن أن يصل معدل إفراز العرق إلى 4 لتر/ ساعة؛ مما يسبب إرهاقاً لا يمكن احتماله إلا لفترة قصيرة، أما في حالة انخفاض درجة حرارة البيئة المحيطة عن الحد المناسب، فإن الاستجابة الفسيولوجية الأولى لذلك انقباض الشعيرات الدموية تحت الجلد، وبالتالي يقلُّ اندفاع الدم إلى البشرة؛ مما يؤدي إلى برودة الشعيرات، وخاصة اليدين والقدمين، وتحدث رعشة لا إرادية في حالات البرد الشديد (الزمهرير)، ويزيد معدل الاحتراق إلى مرتين أو ثلاث مرات"[3].

1- المناخ وعمارة المناطق الحارة، شفق العوضي الوكيل ومحمد عبدالله سراج (1985) القاهرة:166.

2- بحث: معايير الراحة الحرارية للأبنية السكنية، عبد الحق محمد غالب الدميني، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، المجلد 25، العدد الثاني 2009م: 401.

3- المناخ وعمارة المناطق الحارة:174.

وقد وضع العلماء بعض المقاييس والخرائط التي يمكن عن طريقها تحديد مناطق (الراحة الحرارية) للإنسان تحت ظروف مناخية محددة وبدقة كبيرة، من أشهرها "خريطة الراحة الحرارية" التي قام بتصميمها "فيكتور أولجاي"، وهي صالحة لكل المناطق الحارة، جافة كانت أو رطبة، وفي الأماكن التي لا تعلو أكثر من 300 متر فوق سطح البحر.

وإذا كانت الجنة تمثل البيئة المثالية بكل ما فيها من مُتع ونعيم مقيم، فإن آية كريمة تضيف متعة (الراحة الحرارية) أيضًا؛ بإيجاز وإعجاز دقيق قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [سورة الإنسان: 13].

"والاتكاء: جَلسة بين الجلوس والاضطجاع يستند فيها الجالس على مرفقه وجنبه ويمد رجليه وهي جلسة ارتياح، وكانت من شعار الملوك وأهل البذخ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " أمَّا أنا فلا آكل متكئاً"

و﴿الأرائك﴾: جمع أريكة بوزن سفينة. والأريكة: سرير عليه وسادة معها ستر وهو حَجَلتُه، والحجلة بفتحتين وبتقديم الحاء المهملة على الجيم: كِلَّة تنصب فوق السرير لتقي الحر والشمس، ولا يسمى السرير أريكة إلاّ إذا كان معه حَجَلة.

وقال ثعلب: الزمهرير اسم القمر ... والمعنى على هذا: أنهم لا يرون في الجنة ضوء الشمس ولا ضوء القمر، أي ضوء النهار وضوء الليل لأن ضياء الجنة من نور واحد خاص بها". [التحرير والتنوير لابن عاشور].

ويقول ابن كثير (رحمه الله) في معنى هذه الآية: "أي: ليس عندهم حرٌّ مزعج، ولا برد مؤلم، بل هو مزاج واحد دائم سرمدي، لا يبغون عنها حولاً."

أي: لا يرى في الجنة شدة حرٍّ كحرِّ الشمس، ولا بردٌ مُفرطٌ زمهرير، وهذا لعَمْري هو مفهوم الراحة الحرارية، الذي لم يكن معروفًا بالمعنى الذي ذكرناه وقت نزول القرآن الكريم؛ حيث إن

البيئة العربية التي نزل فيها القرآن، يغلب عليها المناخ الصحراوي الحار، وكان الهمُّ الأكبر للعرب هو الوقاية من حرّ الشمس، ولكن جاءت هذه الآية في القرآن الكريم توضح هذا المفهوم المعاصر، لـ" الراحة الحرارية" أي الراحة الفيزيولوجية والراحة النفسية معاً، فهي حالة اتزان حراري بين الجسم والبيئة المحيطة، وهذه الراحة الحرارية تعتبر أحد أهم مقاييس الحكم على مدى نجاح التصميم البيئي للمباني.

كم هو عجيب أمر هذا القرآن؟! فلا تكاد تمضي حقبة من الزمن إلاّ ويُبهر بإعجازه من يحملونه بأيديهم، وسيظل يعجز العلم بنظرياته التجريبية والنظريّة ما دام يتلى إلى يوم القيامة.

ولله درُّ الشاعر مصطفى عكرمة حينما قال:

كتاب الله للأرواح روح ... به تحيا النفوس وتستريح
وإن يهمس بآي منه ثغري ... أحس العطر من ثغري يفوح
به كنا الأعز وكم أقيمت ... لأمتنا بمنهجه صروح
هجرناه فأمسى العز ذلاً ... وناح عليه منا من ينوح
أعد ربي لقومي منه روحاً ... ففي آياته للروح روح

أمرهم شورى.. أو كانوا قوماً بوراً

الشورى في اللغة تعني: تقليب الرأي وإظهاره، قال الراغب الأصفهاني: "التشاور والمشاورة والمشورة: استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم: شرت العسل إذا اتخذته من موضعه واستخرجته منه، وشرت العسل وأشرته: أخرجته"[1].

واصطلاحاً: " الشورى تعني تقليب الآراء المختلفة ووجهات النظر المطروحة في قضية من القضايا واختبارها من أصحاب العقول والأفهام حتى يتوصل إلى الصواب منها أو إلى أصوبها وأحسنها ليعمل به لكي تتحقق أحسن النتائج"[2].

يروي التاريخ عن واقعة غزو المسلمين لصقلية، أن أحد أمرائها التجأ إلى دولة الأغالبة بتونس، وطلب منهم العون لرفع الحيف الذي لحق به من أمراء آخرين ببلاده، وجمع أمير بني الأغلب المسمى زيادة الله مجلس شوراه من فقهاء القيروان وقضاتها وأعيانها وبحثوا الأمر ملياً، ومال بعض أهل الفقه بمن فيهم الإمام سحنون إلى عدم مهاجمة صقلية لبعدها ولأن بينها وبين المسلمين هدنة وعهداً، بينما مال آخرون من أهل القضاء وفيهم القاضي أسد بن الفرات لاستقصاء الواقع، كما هو شأن القضاة دائماً، فأمر باستدعاء بعض رسل الصقليين واستنطقهم إن كان لدى حكومة صقلية أسرى من المسلمين فأقروا بذلك، فاتخذت تلك حجة على الصقليين لأن شروط الهدنة نصت على أن تمكن حكومة صقلية أسرى المسلمين من الرجوع إلى بلادهم إن أرادوا، فاتخذ حينها قرار الغزو.

هذه الحادثة دلت على أن الشورى هي التي مهدت إلى القرار الأصوب بجمعها بين الفقهيْن النظري والعملي معاً.

1- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد خليل عيتاني، الطبعة الثالثة 1422هـ 2001م، دار المعرفة، بيروت: 273.

2- النظام السياسي في الإسلام، محمد عبد القادر أبو فارس: 79.

وجمهور الفقهاء ومنهم الحنفية والمالكية، والقول الصحيح من المذهب الشافعي، يرون وجوب الشورى وفرضيتها، بدليل صيغة الأمر التي تشير إلى الوجوب في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[آل عمران: 159].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: (وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّكُمْ تَتَّفِقَانِ لِي عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ مَا عَصَيْتُكُمَا فِي مَشُورَةٍ أَبَدًا) [رواه أحمد في المسند].

وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أكثر الناس مشاورة لأصحابه، قال أبو هريرة رضي الله عنه: (ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) [رواه الترمذي].

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كذلك فكيف بأفراد الأمة، فالشورى ينبغي أن تكون صفة لكل فرد مسلم، فرَبُّ الأسرة وهو مسؤول أمام الله عن سياستها عليه أن يشاور أفرادها وأهل المعرفة والخبرة من أجل حسن سياستها وقيادتها، وكذلك الوزير في وزارته هو مسؤول أمام الله عن حسن سياسته ومدير المؤسسة والمدرسة، فلا يصح أن نجتزئ من القرآن صفات نتحلى بها وصفات نهملها فنكون ممن جعلوا القرآن عضين.

ولأهمية الشورى جاءت تسمية إحدى سور القرآن الكريم باسم الشورى، وهو في حد ذاته تشريف لأمر الشورى وتنويه بمنزلتها.

فلا يحل للحاكم أن يترك الشورى، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه، فالأمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقه النهوض، والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع.

ومن فوائد الأخذ بالشورى أمور كثيرة منها:

1- إصابة الحق في الغالب.

2- أن العمل بالشورى قربة وطاعة لله عز وجل.

3- تلاقح الأفكار، وتكامل الثقة، وتبادل الخبرة والاطلاع على ما عند الآخرين، والاستفادة من الخبرات المتنوعة.

4- الشورى تعطي قوة للمجتمع في أكثر من مجال إنساني فهي طريق التخلص من الظواهر المرضية، مثل قلة الإخلاص وضعف الأداء الوظيفي، وإهدار الطاقات المفيدة.

5- الشورى تشعر المشاركين بالمسؤولية وأنهم مع المسؤول يسعون إلى تحقيق المصالح العامة، ودرء المفاسد في عملية تكاملية.

6- الشورى تولد الثقة بين الحاكم والمحكوم وتطيب القلوب.

7- الشورى وقاية من الاستبداد وتزود الدولة بالكفاءات والقدرات المتميزة.

8- بالشورى تضيق هوة الخلاف بين الراعي ورعيته، فمع مناقشة الآراء وتداولها وظهور الحق يرجع بعض المخالفين عن رأيه وينصاع إلى الحق، وتتقارب وجهات النظر ويعذر بعضهم بعضاً.

9- الشورى تفجر الطاقات الكامنة في أفراد الأمة، وتشجع ذوي الخبرات وتفسح المجال لكل من لديه خير للأمة أن يدلي برأيه آمناً.

10- بالشورى يمكن مكافحة التطرف والعنف، لأن محصلة الاجتهاد الجماعي تقود إلى قرارات معتدلة في الغالب، فالتشدد لا يصدر إلا من أفراد تنزع بهم إلى اتخاذ قرارات متطرفة أو متعسفة أو مفارقة لخطة الحكمة.

11- تسديد النظر إلى المشكلة من زوايا متباينة، وبذلك تنضاف الرؤى الجزئية بعضها إلى بعض وتتكامل قدر الإمكان، ولذلك قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

رضي الله عنه: " الرأي كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة مرار ولا يكاد ينتقض"[1].

وللشورى خصوصية لا توجد في أي فكر أو مذهب وضعي، ولهذا فإن منهاجها شامل على مستوى الأسرة وعلى مستوى الأمة، وهي تشمل الذكر والأنثى، وما يروى من قول: "شاوروهن وخالفوهن" لا أصل له، وهو قول يخالف القرآن الكريم حينما يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: 233].

وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأي زوجته أم سلمة رضي الله عنها، كما روى البخاري في صلح الحديبية حيث جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: "قوموا فانحروا، ثم أحلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد؛ دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً."

ففي هذا دليل على جواز أن تستشار المرأة الفاضلة العالمة الحكيمة، وكان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قريبة تسمى الشفا بنت عبد الله العدوية يستشيرها وقد كلَّفها بالإشراف على السوق.

بل من أشهر كلام الفاروق عمر رضي الله عنه: "أصابت امرأة وأخطأ عمر"، وفي رواية: "امرأةٌ أصابت ورجلٌ أخطأ".

1- عيون الأخبار، لابن قتيبة :1/ 31.

وهذه ملكة سبأ بلقيس ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:29].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:38] يشمل مدح الرجال والنساء معاً.

وأهل الشورى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والراشدين فما بعد هم كبار الصحابة الذين كانوا يمثلون أقوامهم ويُحظون بثقتهم، وهم أهل الحل والعقد، أما صفاتهم فأهمها: العلم والأمانة والخبرة، ومعرفة الواقع والوقائع.

ولمجلس الشورى صلاحيات ووظائف، ويمكن له الاستفادة من خبرة الآخرين ولو لم يكونوا مسلمين، فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأي سلمان الفارسي في حفر الخندق ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعونا من فارس، ودعونا من أساليب المجوس المشركين..!

وقد عرف العصر الحديث تطورات هائلة وتجارب غنية يمكن دراستها والاستفادة منها، والنظر في جدواها ونتائجها، فالعبرة بالمقاصد والجواهر لا بالوسائل والمظاهر.

لكن الشورى بدون حرية حقيقية؛ لا يمكن أن تتم، وإذا تمت فلا يمكن أن تستمر، وإذا استمرت فليست هي، وإنما هي أسماء وأشكال ورسوم.

وأخيراً :

فإن الشورى هي المصدر الثاني بعد الوحي لهداية الناس ورشدهم وصلاح أمورهم، وهي حق من حقوق المسلمين، وتعطيله من أعظم المظالم والمفاسد التي حاقت بالمسلمين، وإعادة الشورى إلى نصابها هو من التحصينات الإسلامية ضد التصارع والتفرق والفتنة، وأحد المسالك الأساسية لكل إصلاح ونهوض ديني ودنيوي.

بين الصلاح والإصلاح

لاحظوا الفارق الدقيق بين "الصلاح" و"الإصلاح"؛ فـ"الصلاح" أصله من: "صَلُحَ يَصْلُحُ صَلاَحَاً فهو صالح" والمصدر صلاح، و"صَلُحَ" فعل لازم.

أما "الإصلاح" فأصله من: "أَصْلَحَ يُصْلِحُ إِصْلاَحَاً فهو مصلِح، وأَصْلَحَ فعل متعد، والهمزة فيها همزة التعدية.

فالصالح يلزمه صلاح نفسه، أما المصلح فهو صاحب دوْر مزدوج؛ لأنه يصلح نفسه، ويدعو غيره للصلاح، فأثره الإصلاحي يتعدى إلى غيره.

لكن الصلاح هو بداية طبيعة للإصلاح، لأن الإصلاح لا يقوم بالأساس إلا على أكتاف أناس مصلِحين، وهؤلاء المصلِحون لن يصلوا إلى هذه الدرجة إلا إذا كانوا صالِحين.

والمِصْلِح : إنسان قوي بما فيه الكفاية، بحيث يستطيع أن يصعد وينجو بنفسه ويسحب معه آخرين، وقد بيَّنَ ربعي بن عامر رضي الله عنه الأمر عندما سأله رستم قائد الفرس: ما الذي أتى بكم من بلاد الحجاز إلى هذه البلاد؟

فأجابه ربعي قائلاً: لقد ابتعثنا الله لِنُخْرِجِ من شاء من عبادة العباد؛ إلى عبادة رب العباد؛ ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدالة الإسلام.

والإصلاح هو القضية الكبرى لكل المصلِحين ابتداءً من الأنبياء وانتهاءً بالدعاة، ومن صفات المصلِحين أنهم يعملون بما يقولون، وقد سجَّل القرآن الكريم هذه الحقيقة على لسان نبي الله شعيب عليه السلام، فقال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:88].

ووصف الله المصلِحين بأنهم أولئك الذين يعبدون الله ويدعون الناس إلى التمَسُّك بالقرآن، فقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:170].

وأعلمنا الباري جل جلاله أنه قد يأخذ القرى الظالِمة، فيهلكَها حتى وإن كان فيها رجالٌ صالِحون، فوجود الصالِحين لا يشفع لهم، ولا يرفع عنهم العذاب، أما بالمصلِحين فيرفع العذاب والهلاك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:117].

وقد جاء في الأثر أن الله تعالى أمر الملك أن يهلك أهل قرية لِفسقِهم، فقال الملك: يا رب إن فيهم عبدك فلاناً ما عصاك قط ! قال الله عز وجل: ابدأْ به ياجبريل؛ فإنه لم يتمعَّر وجهه من أجلي!

وهكذا حينما نتدبَّر كتاب الله عز وجل نجدُ كثيرًا من الآيات تتحدَّث عن الصَّلاح والإصْلاح، وإذا دققنا بين هاتين الآيتين مثلاً؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: 106 – 107].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:108].

نجد في الآية الأُولى، الفعل " شَقُوا" المبني للمعلوم؛ أي: هم الذين اتَّبعوا طريق الشقاوة بملء إرادتهم، واندفعوا فيه بكل جوارحهم، فصار ذلك سلوكًا لديهم، وخُلقًا قد امتزج بهم، وأصبحت منطلقاتهم فاسدةً، وموازينهم مختلةً، وفسدت طويتهم ونواياهم، وخلا توجههم من الفكر والعمل الإصلاحي.

ومجيء الفعل بصيغة الجماعة " شَقُوا " يشير بأن المعيار الذي تُقاس به الأمم هو الإصلاح، وتبنِّي منهجه، وليس الصلاح في ذوات أفرادها، وحينما كان الإصلاح يتعدى أثره إلى الآخرين كانت الخيرية لهذه الأمة من أجل هذه الصفة؛ قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:110].

وأما الذين "سُعِدُوا"، وردت بصيغة الجمع والمبني للمجهول، وهو يفيد بأن السعادة التي شملتهم كانت نتيجة للباعث الإيماني الذي استحال إلى حركة فاعلة في الواقع، مع أنفسهم وأمتهم، فاصطفاهم الله تعالى لهذه المهمة الإصلاحية، ويسَّر لهم الهدى، واصطفاهم؛ ليكونوا من أهل السعادة.

فالخيريَّة والتوجه الإصلاحي مسؤولية الأمة بجميع أفرادها، فهي مسؤولية تضامنيَّة، وليست فرديَّة، حتى وإن كان أفراد هذه الأمة صالحين، لا يعفيهم ذلك من المسؤولية، فالإصلاح عنوان لصلاح الأمم وازدهارها؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:96].

إن الإصلاحُ هو عطرُ الإيمان، وربيعُ قلبِ الإنسان، ومنارةُ السرور التي تنشرُ الأمانَ والودادَ بين القلوبِ، وفي كل الدروب.

وسعادة المصلِحين تكمن عندما يتصافحُ المتخاصمون ويتبادلون التحايا، وعندما تنتصرُ الحروف على السيوف، وتتفوّق الزنابقُ على البنادق، وتطرُدُ نسائمُ الصفاء سحائبَ البغضاء، وعندما يبدّد ضوء القمر خيوط الظلام وضغائن البشر.

فما أحوجَ الدّنيا إلى مصلِحين يلطّفونَ الطّقسَ العاصف، وما أحوجَ الشفاه الجافّة إلى كلماتٍ دافئة من حَمَلةِ البشائر وجابري الخواطر.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلح لنا آخرتَنا التي إليها معادُنا، يا أرحم الراحمين.

قول الخير غنيمة

أمرنا الله عز وجل أن ننتقي من الأقوال خيرها، ومن العبارات أطيبها، فقال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة:83) أي: قولوا لهم خيراً، وذلك بالقول الحسن والكلام الطيب، وأكد النبي صلى الله عليه وسلم على قول الخير في كل الأحوال والأوقات، وربط ذلك بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر فقال صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً، أو ليصمت". [متفق عليه].

قال ابن عبد البر في التمهيد في شرحه لهذا الحديث: "فليقل خيراً، أو ليصمت . وفي هذا الحديث آداب وسنن منها: التأكيد في لزوم الصمت، وقول الخير أفضل من الصمت، لأن قول الخير غنيمة والسكوت سلامة، والغنيمة أفضل من السلامة، وكذلك قالوا: قل خيرا تغنم، واسكت عن شر تسلم"[1].

وقال النووي: "مَعْنَاهُ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَإِنْ كَانَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ خَيْرًا مُحَقَّقًا يُثَابُ عَلَيْهِ وَاجِبًا أو مندوباً فَلْيَتَكَلَّمْ، وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَنَّهُ خَيْرٌ يُثَابُ عَلَيْهِ فَلْيُمْسِكْ عَنِ الْكَلَامِ سَوَاءٌ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ حَرَامٌ أَوْ مَكْرُوهٌ أَوْ مُبَاحٌ مُسْتَوِي الطَّرَفَيْنِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْكَلَامُ الْمُبَاحُ مَأْمُورًا بِتَرْكِهِ مَنْدُوبًا إِلَى الْإِمْسَاكِ عَنْهُ مَخَافَةً مِنِ انْجِرَارِهِ إِلَى الْمُحَرَّمِ أَوِ الْمَكْرُوهِ وَهَذَا يَقَعُ فِي الْعَادَةِ كَثِيرًا أَوْ غَالِبًا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ الا لديه رقيب عتيد﴾."[2].

فالمرء إذا أراد أن يقول قولا فليفكر فيه قبل النطق به، فإن علم أن قوله يؤدي إلى خير فليتكلم، وإن كان غير ذلك فالسلامة في السكوت.

1- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي وغيره، ج21، ص35.

2- شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج2، ص19.

ومن المواقف التي يستحب فيها قول الخير عند التحدث مع الأم والأب، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:23] أي جميلاً ليناً لطيفاً كأحسن ما تجد من القول مع أدب جم، وتوقير وتعظيم وتواضع لهما، وإحسان إليهما.

ونستذكر الطيب من القول عند زيارة المريض، قال صلى الله عليه وسلم : (إِذا حَضرْتُمُ المرِيضَ، فَقُولُوا خيْراً، فَإِنَّ الملائِكَةَ يُؤَمِّنونَ عَلى مَا تقُولُونَ) [رواه مسلم] وفي ذلك توجيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الخير للمريض من دعاء واستغفار، وطلب للطف به، وتخفيف للألم عنه، فيفوز الزائر بالأجر، وينعم المريض بالطمأنينة، ويطيب خاطره، ويزيد أمله في الشفاء القريب.

وعند الصلح بين الناس يقول المرء خيرا حتى يتسامح المختلفون، وتهدأ النفوس، وتتصافى القلوب، وإن استشعار المؤمن قوله صلى الله عليه وسلم: (فليقل خيراً) يعطيه حساً إيمانياً، يصل به إلى المراقبة الدائمة لله عز وجل في جميع أقواله، فلا يقول إلا خيراً، فتفتح له أبواب الخيرات، ويزداد من الحسنات، لأن قول الخير من أفضل الصدقات، قال صلى الله عليه وسلم : (وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ) [متفق عليه].

ويعظم القول بعظم منزلة صاحبه وقائله، فقول العلماء له تأثيره، فهم يقولون الخير ويظهرونه للناس، وهم قدوة للآخرين، وكذلك خطبة الجمعة تحمل معنى الخير، وتذكر المستمعين بالمعاني العظيمة للدين العظيم، والمعلم يوجه طلابه وتلامذته إلى قول الخير وفعله، وهو أسوتهم قولا وعملا في المجتمع، وإن الرجل مع زوجته وأولاده يختار من الأقوال أحسنها، ومن الألفاظ أعذبها، فالموفق من استحضر مسؤوليته عن كلامه، والتزم بحسن أقواله؛ ليغلق على الشيطان أبوابه، ويفسد عليه أفعاله التي توقع بين الناس، قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء:53].

فما هي خطورة القول إذن؟

إن من استشعر أمانة القول وخطره أمسك لسانه، وتأمل في أقواله، فلا يطلق الأحكام على الناس، ولا يردد الشائعات، ولا يطعن في الآخرين، قال صلى الله عليه وسلم: (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَّانِ وَلا الْفَاحِشِ وَلا الْبَذِيءِ) [رواه الترمذي] والطعان هو الذي يتهم الناس في أعراضهم، وسيحاسبه الله عز وجل على أقواله واتهاماته، فما الأقوال إلا شهادة لك أو عليك، قال الله تعال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:19] فيا فوز من أحسن الجواب بين يدي ربه بالتزامه الخير في أقواله وشهادته، فإن لقول الخير ثمرات جليلة، ومنافع كثيرة، فبالقول السديد تحل المشكلات، وتذوب العداوات، وترفع الخصومات، وتقوى الصلات والعلاقات، وتثبت المودة في القلوب، والمحبة في النفوس، ويتعزز الترابط المجتمعي، ويفوز به الإنسان فوزاً عظيماً، قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:70-71] فالله تعالى أمر المؤمنين أن يقولوا قولا مستقيما نافعا، ووعدهم أن يثيبهم عليه بأن يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم. فيكونوا من الفائزين بجنات النعيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة غرفاً، ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها" فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: "لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام) [مسند أحمد] أي تكلم بكلام طيب، وخاطب الناس بلين ولطف، وتجنب الغلظة في القول.

فعلينا أن نربي أبناءنا على قول الخير عند الحديث مع الأهل والأصدقاء والجيران والمجتمع، فإذا نطقوا نفعوا، وإذا سكتوا غنموا، فقد أفلح من ضبط لسانه وزان كلامه، وقام بالتثبت من صحة الأقوال والأخبار، وعدم تناقلها وترويجها بغير وعي ولا دراية، فقد سأل معاذ بن

جبل رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: (وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ، إِنَّك لَنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَّ ، فَإِذَا تَكَلَّمْت كُتِبَ لَك أَوْ عَلَيْك) [رواه الطبراني] والمراد بحصائد الألسنة: جزاء الكلام وعواقبه؛ فإن الإنسان يزرع الحسنات والسيئات بقوله وعمله، ثم يحصد ما زرع يوم القيامة.

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع	التسلسل
6	**الفصل الأول** **المصحف بين الكرام واللئام**	1
7	الإجازة القرآنية: معناها – منشؤها- أدلتها - وحكم أخذ الأجرة عليها	2
11	لماذا اختار اللهُ تعالى اللغةَ العربية للقرآن الكريم؟!	3
16	لماذا نُصَدِّقُ قَصَصَ القُرْآن ولا يُوجَدُ شاهِدُ عَيَانٍ لهَا ؟	4
20	طباعة المصحف بلغة (برايل)	5
24	تفسير المترفين وترف المفسرين ..!	6
28	العلمانيّ الحُرّ والقرآنُ الآراميّ..!	7
38	الشحرور.. والدين الجديد	8
44	الدعوة لحذف آيات قرآنية: انحطاطٌ سياسيٌّ ولعبٌ بالنار	9
48	قَتَلَةُ أَهْلِ اللهِ وَخَاصَّتِهِ	10
51	**الفصل الثاني** **مفاهيم ومحاذير** **في الفهم والتفسير**	11
52	استخلاف الإنسان في إعمار الكون والمجتمع	
58	التعايش مع الآخر	12
64	إنزال القرآن على واقع الأمة	13
68	فهم الواقع بالسنن الإلهية	14
74	الأمل روح الأمة	15
77	القرآن الكريم يخبرنا مَنْ سيكتشف البناء الكوني؟	16
80	آية تفسر سبب سقوط يبرود	17

18	لا تشتم إلهاً لا تعبده ..!	82
19	لا تغلو في دينكم غير الحق	85
20	حُقُوقُ نبيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُمَّتِهِ	88
21	**الفصل الثالث** **أطايب الكلام** **تفسيرات وآراء**	91
22	الحياةُ الطَّيِّبَةُ في ظِلِّ القرآنِ الكريمِ	92
23	العقل في القرآن الكريم	96
24	اللغة الصامتة في ضوء القرآن الكريم	100
25	المال عصب الحياة	106
26	الإسلام أول من أنار مصابيح التخصص	111
27	الحج: شعائر ومشاعر، وأخلاق وأرزاق، وذكر وشكر	115
28	الكفر ملة واحدة .. فكرة مناقضة للقرآن؟!	119
29	المعجزة القرآنية في الراحة الحرارية	122
30	أمرهم شورى.. أو كانوا قوماً بوراً	126
31	بين الصلاح والإصلاح	131
32	قول الخير غنيمة	135
33	**الفهرس**	139


إضاءات قرآنية
د. محمد محمود كالو
1439 ه 2018 م